15

سلسلة

مَوَازِينُ الْقُرآن

قراءة قرآنية تعيد وزن الأشياء

(إِنَّ هَٰذَا آلْقُرْءَانَ)

[الإسراء: 9]

مركز الدراسات والبحوث
جامعة ابن كثير الدولية

بيانات النشر والحقوق

إصدار: مركز الدراسات والبحوث - جامعة ابن كثير الدولية

السلسلة: موازين القرآن.

اسم الكتاب: إن هذا القرءان - كيف يزن القرآن صلتك به؟

رقم الكتاب في السلسلة: الخامس عشر.

الطبعة الأولى: 1448هـ / 2026م

© جميع الحقوق محفوظة لمركز الدراسات والبحوث - جامعة ابن كثير الدولية.

هذا الكتاب متاح بموجب ترخيص المشاع الإبداعي نسب المصنف - غير تجاري - منع الاشتقاق 4.0 دولي (CC BY-NC-ND 4.0).

يُسمح بتحميل الكتاب ونسخه وتوزيعه وإعادة نشره وطباعته للأغراض غير التجارية دون إذن مسبق، بشرط المحافظة على نسبته إلى أصحابه، وعدم نشر نسخ معدلة أو مترجمة منه.

ويرحب المركز بطلبات طباعة هذا الكتاب ونشره لأغراض تجارية، شريطة الحصول على إذن كتابي مسبق من المركز، مع المحافظة على النص كاملًا دون تعديل أو حذف أو إضافة، ونسبته إلى أصحابه، ما لم يُتفق كتابةً على خلاف ذلك.

رابط الترخيص https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/deed.ar

النسخة الرسمية المعتمدة للكتاب:

https://www.ibnkathir-edu.org/ar/research-center/books/an-htha-alkraaan

إعداد السلسلة

مركز الدراسات والبحوث — جامعة ابن كثير الدولية

الإشراف العلمي على المركز

أ.د. عبدالله بن مبارك آل سيف

الفريق العلمي للمركز

د. عبدالله سالم باهمام

د. صهيب لموح

د. شادية عبدالله بابكر

إسلام موسى

عادل بافرج

المراجعة والتحكيم العلمي

يراجع المركز إصداراته بمحكمين خارجيين عند الحاجة.

كما شارك في إنتاج السلسلة وإخراجها عدد من فرق المركز الإدارية والفنية.

سلسلة موازين القرآن

عناوين الكتب في السلسلة

- **هو الله** | كيف يبني القرآن معرفة العبد بربه؟
- **إلا ليعبدون** | كيف يوحد القرآن وجهة الإنسان؟
- **زادهم هدى** | مسار القلب بين الهداية والزيغ والعودة
- **إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوًّا**
- **ولنبلونكم** | رحلة القرآن في كشف القلوب وبنائها
- **اعلموا أنما الحياة الدنيا** | كيف تنتفع بها من غير أن تستعبدك
- **وتحبون المال حبًّا جمًّا**
- **تلك الدار الآخرة** | الميزان الذي يعيد وزن كل شيء
- **قد أفلح المؤمنون**
- **وقولوا للناس حسنة**
- **كونوا قوامين بالقسط**
- **الذين نافقوا** | من فساد الباطن إلى إفساد الواقع
- **وتلك الأيام نداولها** | كيف يعلّمنا القرآن أن نقرأ حركة الأيام؟
- **إن وعد الله حق**

إن هذا القرآن — هذا الكتاب

بين يدي السلسلة والكتاب

مركز الدراسات والبحوث

يصدر هذا الكتاب ضمن مشروعات مركز الدراسات والبحوث في جامعة ابن كثير الدولية، في مسار يريد للعلم الشرعي أن يبني رؤيةً وعبادةً وسلوكًا. وتقوم السلسلة على الاستقراء ودقة الفهم، مع بقاء الوحي أصلًا حاكمًا؛ فلا تُستدعى النصوص لتزيين فكرة سابقة، ولا يتقدم التحليل البشري على دلالتها وسلطانها.

سلسلة موازين القرآن

تتتبع سلسلة «موازين القرآن» موضوعات كبرى كما يبنيها القرآن، وتستنير بالسنة في بيانها وتجسيدها، ثم تسأل: ما الميزان الذي يبنيه الوحي في القلب؟ وكيف تتغير به رؤية الإنسان وعبادته وقراراته؟ فالميزان هنا ليس شعارًا ذهنيًا، بل طريقة في النظر والعيش.

هذا الكتاب

ويعود هذا الكتاب إلى صلتنا بالقرآن نفسه، إلى الكتاب الذي تقوم عليه تلك الموازين كلها. لا يسأل عن مهارة واحدة، بل عن منزلة كلام الله في القلب والحياة: ما الذي يبقى من القراءة؟ وكيف يصير الوحي هاديًا للرؤية والعبودية والقرار؟ وهو لا يهدم خيرًا قائمًا ولا يضع قارئه في موضع المتهم؛ وإنما يفتح السؤال، ثم يدع القرآن والسنة يكشفان معناه.

محتويات الكتاب

Error! Bookmark not defined.
بيانات النشر والحقوق 2
مقدمة: كيف يزن القرآن صلتك به؟ 7
هذا القرآن 9
ما الذي بين يديك؟ 9
لو أنزلناه على جبل 9
تنزيل رب العالمين 11
كتاب عزيز 13
هيبةٌ تفتح باب التذكرة 13
أن يعود الاسم حيًّا في القلب 14
القرآن متلوًّا ومتلقّى 16
القراءة عبادة وباب لقاء 16
حين يجتمع القلب واللسان 16
الثقل والتيسير 18
الحرف عبادة 19
قراءة على مُكث 20
حين تكون أنت المستمع 21
صحبة لا زيارة 22
حين تنفتح القراءة 24
لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ 26
باب المعنى 26
التدبر في صلاة النبي ﷺ 26
القصة التي تصير عِبرة 27
حين يعيد الله المعنى إلى القلب 28
فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ؟ 28
فهمٌ أمين يفتح للقلب باب العبودية 29
آية تبقى بعد التلاوة 29
نور وشفاء وهدى 31
من ربكم إلى ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ [يونس: 58] 31
ما الذي زادك؟ 35
ميزان اللقاء بالوحي 35

زيادة يفرح بها المؤمن ____ 35
والتلاوة نفسها موضع زيادة ____ 36
من الاقشعرار إلى اللين____ 37
«وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي» ____ 38
ما الذي بقي فيك؟ ____ 39
الكفة الأخرى____ 39
إذا طال الأمد ____ 41
والقرآن ما يزال حاضرًا ____ 41
إذا سبق الميل الدليل ____ 42
أن يبقى القرآن قادرًا عليك ____ 44
سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ____ 46
حين يكون الحكم عليك____ 46
حتى يسلّم القلب ____ 47
تحت الثقل ____ 48
غُفْرَانَكَ رَبَّنَا____ 49
فَاتَّبِعُوهُ ____ 51
أن يتقدم الكتاب____ 51
كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ____ 52
ما أُنزل إليكم من ربكم ____ 53
كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ ____ 56
حين يصير القرآن فيك ____ 56
آية توقفك ____ 57
آية تبلغ أحب ما عندك ____ 58
فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا____ 59
كان خُلُقُه القرآن ____ 60
وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ____ 61
الاستمساك قبل السؤال____ 61
فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا ____ 61
حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ____ 62
تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ____ 63
اقْرَأْ وَارْتَقِ ____ 64
كتب سلسلة موازين القرآن ____ Error! Bookmark not defined.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾

[الإسراء: 9]

مقدمة: كيف يزن القرآن صلتك به؟

يسهل أن تعرف كم قرأت من القرآن. يمكن أن تعد الأجزاء، والختمات، والسور المحفوظة، والسنوات التي صحبت فيها المصحف، والمجالس التي حضرتها، والآيات التي جرت على لسانك. ويمكن أن تعرف أنك تحب سماعه، أو أنك لا تكاد تدع يومًا يمر من غير ورد، أو أن لك سورة ترجع إليها إذا ضاق صدرك، وقارئًا يفتح صوته في قلبك أبوابًا لا يفتحها غيره.

وكل هذا خير.

وكل ما سبق من التلاوة والحفظ والمحبة والسماع خير عظّمه الوحي، ومنه تبدأ الصحبة ولا تنتهي عنده.

لكن شيئًا آخر يبقى بعد أن نعد هذا كله: هل هذه الأشياء ـ على فضلها ـ هي الميزان الكامل لصلتنا بالقرآن؟

عن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به كالأترجة، طعمها طيب وريحها طيب، والمؤمن الذي لا يقرأ القرآن ويعمل به كالتمرة، طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كالريحانة، ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كالحنظلة، طعمها مر ـ أو خبيث ـ وريحها مر». (البخاري 5059، ومسلم 797).

القراءة في الحديث فضيلة ظاهرة باقية في موضعها، لكنها ليست وحدها اسم العلاقة كلها؛ فقد يكون القرآن على اللسان، وله في القلب والحياة منزلة أخرى، وقد تكون للعبد صلة صحيحة من وجه تحتاج أن تكتمل من وجوه أخرى.

وهنا يبدأ سؤال هذا الكتاب: حين نقول «صلتي بالقرآن جيدة»، بماذا نزنها؟ بالكم؟ بالحفظ؟ بالصوت؟ بالمعرفة؟ بالتأثر؟ بكثرة الاستشهاد؟ أم أن الوحي يضع لهذه الصلة ميزانًا أوسع من أن يُختصر في علامة واحدة؟

فالقرآن يُتلى ويُسمع ويُتعلم ويُتدبر ويُتذكر به، ويعمل في القلب، ويُتبع ويُستمسك به، ويستجاب لما جاء به. وفي الطريق كله لا يكون السؤال فقط: ماذا فعلت أنت بالقرآن؟ بل كذلك: ماذا فعل القرآن بك؟

قد نُتلى الآيات، لكن أثر التلاوة لا يقع في القلوب على صورة واحدة. وقد يعرف إنسان من النصوص كثيرًا، ثم يبقى السؤال: هل صار الوحي يصحح هواه، أم صار الهوى ينتقي من النص ما يخدمه؟ وقد يجل المرء القرآن في قلبه ولسانه، ثم يأتي موضع الحكم الذي يخالف رغبته؛ وهناك يظهر من الصلة ما لا تقيسه الختمة ولا جودة الصوت.

هذا هو الفرق بين أن يكون القرآن حاضرًا في حياتك، وأن تكون حياتك واقعة تحت هدايته.

وقد يكون الفرق بين الحالين دقيقًا لا تراه في يوم واحد. لك ورد ثابت، وتحفظ سورًا، وتحب سماع قارئ بعينه، ثم تأتي آية في موضع اختيار أو غضب أو خوف أو مصلحة؛ وهناك يظهر هل بقي القرآن قريبًا من اللسان وحده، أم صار له موضع يتقدم فيه على ما تريد. وما عندك من خير يمكن أن يفتح إلى خير أعمق.

ويأخذ الكتاب ما عندك من تلاوة وحفظ ومحبة وسماع، ثم يسأل كيف تكتمل هذه الصحبة حتى يكون كلام الله أقدر على أن يهدي القلب حين يحتاج الهداية، ويوقفه حين يحتاج الوقوف، ويواسيه حين يضيق، ويقوده حين تتعدد أمامه الطرق.

ولذلك لن يبدأ هذا الكتاب منك: لا بعدد صفحاتك، ولا بطريقة تدبرك، ولا بدرجة تأثرك. سيبدأ من الشيء الذي بين يديك؛ من الكتاب الذي ألفت رؤيته حتى تحجب الألفة بعض الهيبة، واعتدت سماع اسمه حتى تمر الحقيقة الكبرى على القلب مرور المعلوم القديم: هذا كلام الله.

فما الذي بين يديك حقًا؟

هذا القرآن

ما الذي بين يديك؟

في كل مرة تفتح فيها المصحف يقع أمر أعظم من أن تحيط به العادة.

تمس يدك ورقًا، وتقع عينك على حروف، ويتحرك بها لسانك؛ لكن الذي وصل إليك ليس كلامًا نشأ في الأرض. بين يديك كلام ربك: كلام الذي خلقك، ويعلم سرك ونجواك، ويرى مبدأك ومنتهاك، ويعلم ما يصلح قلبك قبل أن تعرف أنت موضع علته.

هذه حقيقة نعرفها جميعًا: **القرآن كلام الله.**

لكن بعض الحقائق من كثرة ما نعرفها تمر على القلب في صورة معلومة، حتى تحتاج أن تعود إليها لا لتتعلمها من جديد، بل لتسترد وزنها.

فالعبد قد يقول عشرات المرات: «كلام الله»، ثم يفتح المصحف بالقلب نفسه الذي يفتح به سائر ما يقرأ. وقد يسمع الآية التي حفظها منذ الصغر، فيسبق لسانه إلى تمامها قبل أن يسبق قلبه إلى استحضار من تكلم بها.

وعظمة القرآن لا تحتاج أول ما تحتاج إلى عبارة منا تزيدها؛ يكفي أن نقف حيث أوقفنا الله.

قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: 21].

لو أنزلناه على جبل

الجبل يستحضر في الحس معنى الثبات: صلابة، ورسوخ، وامتداد، وثقل؛ تتقلب عليه الفصول، ويبقى عنوانًا لما لا يتحرك بسهولة.

ثم يضرب الله به المثل لهذا القرآن.

والآية لا تكتفي بأن تقول إن الجبل يتأثر، إنها ترسم مشهدًا يهز القلب قبل أن يشرحه العقل: ﴿لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾.

خشوع يغيّر هيئته، وتصدع يبلغ بنيته.

ثم لا يتركك القرآن متفرجًا على الجبل: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

المشهد لك.

يعيدك المثل من الجبل إلى قلبك. فالمشهد لم يُضرب لتتأمل صورة الجبل وحدها، وإنما لتعرف رتبة هذا القرآن الذي تتلقاه.

كيف صار كلام هذه رتبته قريبًا مني إلى الحد الذي أستطيع أن أمر به أحيانًا ولا يتغير فيَّ شيء؟ كيف يمكن أن أجري الآية على لساني، ثم لا أقف عندها إلا بقدر ما أقف عند جملة مألوفة؟ وكيف تحولت أعظم نعمة في بيتي ـ أن يكون كلام الله بين يدي ـ إلى نعمة يحجب دوامها بعض الإحساس بها؟

وفي صورة الجبل يقول الطبري: «متذللًا متصدعًا من خشية الله على قساوته، حذرًا من أن لا يؤدّي حقّ الله المفترض عليه في تعظيم القرآن» (تفسير الطبري 300/23- تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة).

ويروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: «فأمر الله عز وجل الناس إذا أنزل عليهم القرآن أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع» (301/23).

ثم تأتي خاتمة المثل: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، ويقول الطبري: «ليتفكروا فيها، فينيبوا، وينقادوا للحق» (301/23). فالتفكر هنا يعيد إلى القلب قدر القرآن، ويقوده من رؤية المشهد إلى الخشية والإنابة والانقياد للحق.

قد يكون القرآن أقرب كتاب إلى يدك؛ والسؤال الذي يوقظه المثل: ما رتبته في قلبك وهو قريب من يدك؟

ومن النعمة أن يكون الكلام الذي لو ضُرب مثل نزوله على جبل لرأيته خاشعًا متصدعًا، هو نفسه الكلام الذي تستطيع أن تفتحه الآن في هدوء غرفتك، وأن تحمله في كفك، وأن تجري حروفه على لسانك.

ابق مع الصورة قليلًا. هذا الذي تمر عليه عينك كل يوم ليس عاديًا لأنك اعتدته. ومن أخص نعم الله أن تبقى الصحبة ويبقى الجلال: تعرف السورة منذ طفولتك، ثم تقرأها اليوم بقلب أكثر معرفة بمن تكلم بها.

الكلام الذي ضُرب مثل نزوله على جبل هو نفسه الذي أذن الله لك أن تحمله، وأن تردده في صلاتك، وأن تعود إليه كلما احتجت إلى هدى. قربه لا ينقص عظمته، بل يخصك بنعمة تستحق أن تُشكر.

فمن أين جاء هذا الكلام؟

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: 192-195].

تنزيل رب العالمين

اقرأ أول الوصف بتمهل: ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ليس مصدر القرآن ذهنًا بشريًا ارتفع، ولا تجربة نبي تأملت الوجود ثم صاغت حكمتها، ولا تراث أمة منحته القرون سلطانه.

رب العالمين أنزله.

وهذه النسبة وحدها تكفي لتغير هيئة القلب أمامه.

فالذي بين يديك ليس كلامًا عن الله فقط، هو كلام من الله. ومن هنا تأخذ الحروف جلالها قبل أن تعرف ما ستطلبه منك الآية، ومن هنا يكون للخبر وزنه، لأن أول نسبته إلى رب العالمين.

أنت حين تفتح المصحف لا تبدأ قصة هذا الكلام من الصفحة التي أمامك.

الصفحة آخر ما وصل إليك من طريق كريم، أما أوله فمن عند رب العالمين.

﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: 193-194].

من عند الله، حمله الروح الأمين، فنزل به على قلب محمد ﷺ، ثم بلغه الرسول كما أُمر، حتى جرت الآيات بعد ذلك على ألسنة أجيال من المؤمنين، ووصلت إليك أنت في يومك هذا.

قف عند كلمة ﴿عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾.

فالقرآن الذي صار اليوم مصحفًا تحمله، كان وحيًا يتلقاه قلب النبي ﷺ من ربه. وقد حفظت السنة لنا شيئًا من شدة ذلك التلقي وثقله، ليبقى طريق الوحي حاضرًا في القلب ولا يتحول المصحف المألوف إلى شيء عادي في الحس.

سأل الحارث بن هشام رسول الله ﷺ كيف يأتيه الوحي، فذكر النبي ﷺ من صور مجيئه، ثم قالت عائشة رضي الله عنها: «ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقًا». (البخاري 2)

يوم شديد البرد.

ثم ينقضي الوحي، والعرق يتفصد من جبينه ﷺ.

ليس في الخبر وصف طويل؛ ولهذا يشتد حضوره. برد شديد في الخارج، وعرق يتفصد من جبينه ﷺ بعد انقضاء الوحي. لا نعرف من هذا الخبر أكثر مما أخبرتنا به عائشة رضي الله عنها، ولا نحتاج إلى أكثر؛ يكفي أن نتباطأ أمامه لحظة. الآيات التي صارت اليوم مألوفة في سمعك مرّت أول مرة على قلب رسول الله ﷺ في مقام تلقٍّ لا يشبه كلام البشر للبشر.

ثم مضت القرون، وحفظ الله كتابه، وتعلمه الناس وعلّموه، وطُبع في المصاحف، وصار يمكنك أن تمد يدك إليه متى شئت. هذه المسافة بين شدة التلقي الأولى ويسر الوصول إليك اليوم ليست مسافةً تنقص من قدر الوحي؛ إنها باب شكر. من الرحمة أن يكون العظيم ميسّرًا، وأن يكون الكلام الذي نزل من عند الله قريبًا إلى هذا الحد من عبد يفتح مصحفه في سكون ليلة عادية.

لا نحتاج أن نحمّل المشهد ما لم يقل، ولا أن نفسر به كل موضع ذُكر فيه ثقل الوحي. يكفي أن نبقيه كما هو: صورة صحيحة من بيت النبوة تخبرك أن نزول هذا الكلام لم يكن أمرًا يمر على رسول الله ﷺ مرور الكلام العابر.

ثم انظر إلى فضل الله عليك: هذا الوحي الذي كان نزوله على النبي ﷺ بهذه الشدة صار بين يديك ميسرًا للقراءة، محفوظًا، قريبًا، تستطيع أن تعود إليه في ليلك ونهارك.

كتاب عزيز

ثم يصف الله كتابه وصفًا آخر: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: 41-42].

﴿لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ كتاب أعزّه الله وصانه، ثم يبين السياق وجهًا من هذه العزة: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾.

ثم يعيدك الوصف مرة أخرى إلى المنزّل: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾. فالعزة ليست صفة كلام منفصلة عن قائله، هذا كلام الله الحكيم الحميد.

كأن القلب كلما أخذته أوصاف الكلام ردّه القرآن إلى المتكلم: من عنده نزل، وبحكمته جاء، وهو المحمود في خبره وحكمه وأمره.

فإذا كان الذي نزله حكيمًا حميدًا، لم يكن المطلوب منك أن تمنح كلامه ثقتك، بل أن تتلقى خبره بقلب يأمن حكمة قائله وحمده، وأن تدع مقاييس الناس تتبدل من حوله ولا يتبدل موضعه في قلبك. الناس لا يمنحون القرآن عزته، وإنما يُعِزّ الله من قام بحقه.

هيبةٌ تفتح باب التذكرة

قال الله لنبيه ﷺ: ﴿طه ۝ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [طه: 1-3].

قال الطبري في تفسيرها: «ما أنزلناه عليك فنكلفك ما لا طاقة لك به من العمل، وذُكِر أنه قيل له ذلك بسبب ما كان يلقى من النَّصب والعناء والسهر في قيام الليل» (269/18). ثم يجيء وجه الآية الموجب: ﴿إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ﴾.

ولفظ الخشية يصل هذا الموضع بمشهد الجبل: هناك جبل خاشع متصدع من خشية الله، وهنا القرآن تذكرة لمن يخشى. فالخشية التي يوقظها تعظيم كلام الله تفتح القلب للتذكرة.

وساق الطبري عن قتادة في هذا الموضع: «ما جعله الله شقيًّا، ولكن جعله رحمةً ونورًا ودليلًا إلى الجنة» (269/18). فتجتمع في صلة العبد حقيقتان: تهابه لأنه كلام الله، وتقترب منه لأنه تذكرة من ربك. قدره يوقظك من الألفة، ورحمة منزله تفتح لك باب الرجوع كلما فتر القلب.

ومع الهيبة محبة لا تناقضها. روت عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ بعث رجلًا على سرية، فكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بـ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٞ﴾ [الإخلاص: 1]. فلما سُئل عن ذلك قال: «لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها». فقال النبي ﷺ: «أخبروه أن الله يحبه» (البخاري 7375، ومسلم 813).

أحب السورة لما عرف فيها من صفة ربه. فمعرفة مَن المتكلم لا تورث القلب هيبةً وحدها؛ تفتح له باب المحبة أيضًا. وكلما عرف العبد ربَّه من كلامه، صار رجوعه إلى القرآن رجوعَ مشتاق إلى كلام من يحب، لا رجوعَ مكلَّف إلى واجب مجرد.

أن يعود الاسم حيًّا في القلب

وربما لا تحتاج بعد هذا كله إلى أن تحفظ قائمة جديدة من أوصاف القرآن بقدر ما تحتاج أن تسترد الحياة في الأسماء التي تعرفها من زمن. فرق بعيد بين أن تكون العبارة محفوظة في اللسان، وبين أن تعود في اللحظة المناسبة فتغيّر هيئة القلب أمام المصحف.

فحين تقول: هذا كلام الله، لا تمر بها كأنها اسم جنس لكتاب تعرفه؛ استحضر أن المتكلم هو ربك. وحين تقول: تنزيل رب العالمين، تذكر أن الذي أنزله هو الذي بيده أمرك كله. وحين تقرأ: كتاب عزيز، فليثبت قدره في قلبك ولو تبدلت من حولك آراء الناس ومقاييس الزمن.

وحين ترى الجبل في المثل خاشعًا متصدعًا، فاطلب قلبًا يفيق من الألفة، ويعرف أن ما يمر على لسانه أعظم من أن يكون خلفية لحياته.

وهنا تستقيم بداية الصلة: قبل عدد الصفحات، وقبل الختمات، وقبل مهارات التدبر، وقبل سؤال العمل نفسه.

تبدأ من أن تعرف **مَن المتكلم.**

فإذا استقر هذا في القلب، تغيرت هيئة كل ما سيأتي بعده.

لا يلزم أن يحدث هذا التغير كله في لحظة واحدة. قد تفتح المصحف غدًا ويغلبك الشرود، وقد تقرأ سورة تعرفها فلا تجد في قلبك ما كنت ترجوه، وقد تسمع آية في الصلاة ثم تنسى معناها بعد دقائق. معرفة مَن المتكلم لا تجعل القلب دائم الحضور؛ لكنها تمنحه جهة يعود إليها كلما غفل. وحين تكتشف أنك مررت بالآية سريعًا، تستطيع أن ترجع لا لأن القراءة الأولى ضاعت، بل لأن الباب ما زال مفتوحًا.

ومع الأيام يتكون من هذه العودة شيء هادئ لا يُرى دفعة واحدة: هيبة قبل القراءة، وإنصات أصدق عند السماع، وتردد أقل أمام أمر واضح، ورجاء أشد حين تقرأ وعدًا من ربك. عندها لا يصبح القرآن حدثًا منفصلًا في وقت الورد؛ يصير كلامًا تعرف صاحبه، ولهذا يتغير مقامك كلما لقيته.

تصير القراءة وقوف عبد بين يدي كلام ربه، لا حركة لسان أمام نص مألوف.

ويصير السماع استقبالًا لكلام نزل من عند الله، لا صوتًا حسنًا يملأ المكان ثم يمضي.

ويصير تكرار الآية عودةً إلى كلام تعرف من قائله، لا مجرد استذكار لما حفظت.

ويبقى بعد معرفة رتبة هذا الكلام سؤال طبيعي: ما أول حق له عليك حين تلقاه؟

إذا كان هذا هو القرآن، **فكيف تتلقاه؟**

هناك تبدأ التلاوة: بابًا مفتوحًا بين عبد وربه، يتعبد بحروف كلامه، ويتلقى منها المعنى والهداية.

القرآن متلوًّا ومتلقّى

القراءة عبادة وباب لقاء

إذا عرفتَ مَن المتكلم، لم تعد القراءة حركةً واحدة من حركات يومك.

تفتح المصحف، فيجري على لسانك كلام رب العالمين. وتتفاوت المجالس: يصفو القلب مرة، ويثقل مرة، وتنفتح دلالة في يوم وتغيب في يوم، ويبقى أصل اللقاء قائمًا: أنت تقرأ كلام الله تعبّدًا له.

ولهذا لا تُختزل القراءة في كونها طريقًا إلى شيء بعدها؛ فلها قيمتها في ذاتها، ثم تنفتح منها أبواب التدبر والعمل والهداية. الوحي نفسه جعل التلاوة عبادة، وجعل لها أجرها، ورسم لها هيئةً تليق بما يُتلى.

وأول مشهد يفتح معنى هذا التلقي ليلٌ، وعبد قائم بين يدي ربه، وكلام يتنزل عليه. قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: 1-6].

حين يجتمع القلب واللسان

الخطاب للنبي ﷺ، والسورة نفسها تذكر في آخرها قيام طائفة من الذين معه. وفي هذا المشهد تتشكل هيئة التلقي: قيام، وترتيل، وليل تهدأ فيه شواغل النهار.

تخيل هذا القدر من المشهد فقط: ليل تقل فيه الأصوات، وعبد قائم، وآيات تخرج على تؤدة. ليست قيمة الليل في أنه زمن منفصل عن سائر الأوقات، وإنما في أن بعض شواغل النهار قد سكنت، فصار القلب أقدر أن يسمع ما يقوله لسانه. وما يطلبه القرآن هنا أن تعطي كلام الله من انتباهك ما يسمح له أن يصل.

وقد لا يكون لك من الليل إلا قليل، ولا تكون قراءتك طويلة. المقصود الذي يمكن أن تصحبه معك هو ألا تكون كل تلاوتك مرورًا. أن يوجد في صحبة القرآن موضع لا تستعجل فيه الصفحة التالية، ولا تجعل نهاية السورة هي وحدها معيار نجاح المجلس. ربما خرجت من عشر آيات بقلب أحضر من خروجك من

صفحات كثيرة، وربما كانت كثرة القراءة نفسها بابًا عظيمًا لك في يوم آخر. المهم أن يبقى في القراءة معنى التلقي، لا حركة الإنجاز وحدها.

قال الطبري في الترتيل: «وبيّن القرآن إذا قرأته تبيينًا، وترسّل فيه ترسّلًا» (680/23). فالتلاوة التي تليق بهذا الكتاب تُقرأ على تؤدة، يسمع فيها القارئ ما يجري على لسانه، ويعطي الكلمات زمنها.

ثم لا يترك القرآن الليل مجرد إطار للمشهد، بل يكشف سرّ هذا الموضع منه:

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: 6].

وعند الطبري في قراءة ﴿أَشَدُّ وَطْئًا﴾: «أشد ثباتًا من النهار وأثبت في القلب» (684/23). وذكر قراءة أخرى: «وِطَاءً» بكسر الواو ومد الألف، وروى عن مجاهد: «تواطئ سمعك وبصرك وقلبك» (685/23).

والقراءتان عنده صحيحتا المعنى. وفسر قوله تعالى ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ بقوله: وأصوب قراءة.

فقيمة الليل فيما يتهيأ فيه من جمع النفس على ما تقول: يثبت العمل في القلب، وتجتمع الحواس مع القراءة، ويستقيم القول.

وهذا يفسر شيئًا من معنى الترتيل: المقصود ليس بطئًا مصنوعًا، بل تؤدة تمنح التلقي زمنه، وتترك للكلام أن يستقر قبل الانتقال إلى ما بعده.

﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: 5].

وساق الطبري في ثقله أقوالًا يجمعها قوله: إنه «ثقيل محمله ثقيل العمل بحدوده وفرائضه»، وقال قتادة: «ثقيل والله فرائضه وحدوده» (682/23).

فالقرآن ميسّر على اللسان بتيسير الله، لكنه ليس خفيف القدر. تستطيع أن تقرأ الآية في ثوان، وأن تحفظ السورة، وأن تحمل المصحف في كفك؛ ويبقى الذي تتلوه ﴿قَوْلًا ثَقِيلًا﴾.

ومن هنا تتغير هيئة القراءة: تبقى في القلب رتبة الكلام ولو كثرت التلاوة. الألفة هنا نعمة؛ أن تصحب كلام الله كل يوم، مع بقاء الجلال حيًّا في القلب.

الثقل والتيسير

ثم تمضي السورة نفسها حتى تبلغ آخرها، فتعود إلى القائمين في الليل بعد أن مضى عليهم التكليف والمجاهدة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: 20].

ابدأ من أول الكلمات: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾.

يعلم قيام نبيه ﷺ، ويعلم قيام الذين معه، ويعلم الليل الذي يحاولون تقدير أجزائه، ويعلم طاقتهم وضعفهم. ثم يذكر المرض، والسفر في طلب الرزق، والقتال في سبيل الله؛ فتأتي الرخصة من العلم المحيط بحال عباده.

والتيسير هنا في سياق قيام الليل والقراءة في الصلاة، كما يبين الطبري: «فاقرءوا من الليل ما تيسر لكم من القرآن في صلاتكم» (698/23). فالسورة التي قالت في أولها ﴿قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: 5] هي التي قالت في آخرها ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ﴾.

ويجمع مجاهد بين موضعي التخفيف؛ ففي قوله تعالى ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: 2] قال: «هي مثل قوله ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: 20]» (الطبري، 269/18).

الثقل حق.

والتيسير حق.

يعظم الكلام، ويعرف منزله ضعف عبده؛ يطلب منه القيام، وهو يعلم أنه لن يحصي الليل، فيخفف.

وهذه المعرفة بالله تغيّر شعور القارئ وهو يقبل على القرآن. ليست الصحبة بابًا لمن اكتملت قوته وحده، بل هي مفتوحة للعبد في قوة أيامه وضعفها، وربه يعلم مرضه وشغله وسفره، ويعلم كيف يعود إليه.

وهذا من أرحم ما يحتاجه من عرف أيام القوة وأيام الفتور. قد تمر عليك أيام تقرأ فيها كثيرًا ويسهل عليك المكث، ثم تأتي أيام يضيق فيها الوقت أو يثقل البدن أو يتشتت القلب. لا تجعل صورة واحدة من نفسك شرطًا لفتح المصحف. ربك الذي دعاك إلى كلامه يعلم تغير أحوالك قبل أن تعرفها أنت، وفي السورة نفسها اجتماع التكليف والتخفيف.

فإذا ضعفت، لا تجعل ضعفك حجة على الهجر. اقرأ ما تيسر، ولو كان أقل مما كنت تقرأ، واحفظ خيط الصحبة. وإذا قويت فلا تجعل التيسير ذريعة إلى الدعة؛ زد ما فتح الله لك فيه. وبين الحالين يبقى المعنى واحدًا: أنت عبد يعود إلى كلام ربه؛ لا تنقطع صلته به لأن مقداره قل.

الحرف عبادة

ولهذا جاءت السنة فثبّتت قيمة التلاوة نفسها. قال رسول الله ﷺ: «مَن قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: الم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف» (الترمذي 2910، وقال: «حسن صحيح غريب»).

الحرف الذي تمر به سريعًا لا يمر في ميزان الله بلا قدر.

لا تحتاج التلاوة إلى أن تبرهن على نفعها كل مرة بخاطرة جديدة؛ فهي عبادة قائمة بذاتها، تقرأ فيها كلام الله تعبّدًا له، والحرف حسنة، والحسنة مضاعفة.

وهنا يلين شيء في نفس القارئ الذي أثقله حساب الإنجاز. يفتح المصحف وفي ذهنه الجزء والختمة والعدد، ثم يرده الحديث إلى أصغر وحدة في القراءة: حرف.

فيمنح الحديث القليل قدره، ويفتح للكثير مزيدًا من الأجر؛ فكل حرف يُزاد في التلاوة حسنة مضاعفة.

وتزداد الرحمة وضوحًا حين تكون القراءة نفسها شاقة. قال رسول الله ﷺ: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق، له أجران» (مسلم 798).

الماهر في منزلة كريمة، والمتتعتع داخل العبادة وهو يتعلم ويجاهد الحرف، قد يقرأ غيره الصفحة في دقائق، ويقف هو عند الكلمات، وقد يكون حديث عهد بالعربية، أو كبير سن، أو ضعيف حفظ، أو يحتاج إلى وقت أطول حتى تلين القراءة على لسانه. ومشقته نفسها موضع فضل؛ فقد ختم النبي ﷺ وصفه بقوله: «له أجران».

ما أوسع باب القرآن: فيه مكان لمن جرى به لسانه، ومكان لمن يتعلم كيف يجري.

وفيه قارئ يعود بعد انقطاع، وآخر يبدأ من جديد، وثالث يحفظ ثم يفلت منه بعض ما حفظ فيراجعه.

وفي هذا سعة يحتاجها من يقارن نفسه بغيره. قد يسمع قارئًا يجري القرآن على لسانه فيحزن على بطئه، أو يرى من ختم مرات فيشعر أن صفحاته القليلة لا وزن لها. الحديث لا يلغي فضل الماهر، لكنه لا يغلق الباب في وجه من شق عليه الطريق. المشقة نفسها لم تُخرج صاحبها من الفضل؛ بل صار له أجران.

فلا تجعل صعوبة البداية سببًا لتأجيلها، ولا تجعل انقطاعًا قديمًا اسمًا دائمًا لعلاقتك بالقرآن. العودة نفسها عبادة. أن تفتح السورة التي ثقلت على لسانك، وأن تعيد الحرف حتى يستقيم، وأن تقبل أن تكون في أول الطريق في باب من أبوابه؛ كل ذلك خير ما دمت تتوجه إلى كلام الله وتطلب أن تتعلمه.

قراءة على مُكث

وللتلاوة زمنها الذي يليق بها. قال الله تعالى:

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: 106].

والخطاب للنبي ﷺ في قراءته القرآن على الناس. قال الطبري في ﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾: «لتقرأه على الناس على تُؤدة، فترتله وتبينه، ولا تعجل في تلاوته، فلا يفهم عنك» (575/17).

ويعود بنا النص إلى أول المزمل: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: 4].

التؤدة لا تعني أن القارئ الأبطأ أفضل بإطلاق، ولا أن كثرة القراءة نقص. قد يفتح الله على عبد فيكثر، وتكون كثرة التلاوة غذاء قلبه. ويضع الوحي داخل القراءة معنى لا تقيسه الأعداد وحدها: أن يكون ثمة تلقٍّ.

أن تسمع ما تقرأ، وتعطي الحروف حقها، وتجعل لك مع القرآن زمنًا يتسع للتلقي.

وتحفظ السنة في معنى القراءة المتلقاة مشهد أُسيد بن حضير رضي الله عنه.

كان يقرأ من جوف الليل في مربده، وفرسه قريبة منه، فجالت الفرس، ثم عادت فاضطربت كلما قرأ. وكان ابنه يحيى قريبًا منها، فخشي عليه. ثم رأى فوق رأسه مثل الظلة فيها أمثال السرج.

فلما أخبر النبي ﷺ قال له: «تلك الملائكة كانت تستمع لك» (مسلم 796).

قارئ في جوف الليل، يقرأ في خلوة، ومن غير أن يعلم أن لهذا الصوت الذي يخرج منه شهودًا لا يراهم.

الذي كان في نظره مجلسًا صغيرًا بينه وبين القرآن، اتسع في عالم الغيب حتى حضرت الملائكة لسماعه.

ما كان أُسيد رضي الله عنه يقرأ ليصنع مشهدًا يراه الناس. كان في جوف الليل، في مكانه، وفرسه قريبة، وابنه قريب منها. القراءة في ظاهر الحس مجلس صغير جدًا؛ رجل وصوته وآيات من القرآن. ثم كشفت السنة أن للمجلس امتدادًا لا تراه العين. هذه الزيادة في المعنى هي التي ينبغي أن تبقى معك، لا انتظار شيء خارق يتكرر.

كم من تلاوة لا يسمعها أحد من أهلك، ولا يعرف بها صديق، ولا يراها الناس. تبدو لك صغيرة لأنها خفية، لكنها ليست صغيرة عند الله لمجرد أنها خفية. يكفي أن تكون عبادة بين عبد وربه. وربما كان من أنفع ما تفعله بعلاقتك بالقرآن أن تحفظ فيها مساحة لا تحتاج أن يشهدها الناس أصلًا: قراءة لا تريد منها إلا أن تقرأ كلام ربك.

حين تكون أنت المستمع

وفي المشهد معنى آخر: للقراءة سامع. فإذا صرت أنت السامع، علّمك القرآن هيئةً أخرى من العبودية: أن تفتح سمعك لكلام ربك، وأن تنصت له حيث جاء الأمر بالإنصات.

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: 204].

الاستماع والإنصات عبادة مستقلة عن التلاوة باللسان؛ تفتح فيها سمعك لكلام الله، ويأتي ختام الأمر برجاء الرحمة: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

ورجّح الطبري موضع الأمر فقال: «أمروا باستماع القرآن في الصلاة إذا قرأ الإمام، وكان من خلفه ممن يأتمّ به يسمعه، وفي الخطبة» (352/13).

وحين تقف في الصلاة خلف إمام يجهر بالقراءة، فحظك من القرآن في تلك اللحظة أن تسمع وتنصت؛ يقرأ هو، ويصير إصغاؤك أنت عبادةً ترجو بها الرحمة.

صحبة لا زيارة

القراءة التي تعيش لا تقوم على لحظة واحدة مهما كانت جميلة.

قال رسول الله ﷺ: «تعاهدوا هذا القرآن، فوالذي نفس محمد بيده، لهو أشد تفلتًا من الإبل في عقلها» (البخاري 5033، ومسلم 791).

«تعاهدوا»؛ في الكلمة معنى الرعاية والعودة.

ما حفظته يحتاج أن ترجع إليه، وما لان على لسانك يحتاج أن يبقى قريبًا. والإنسان ينسى ويتشاغل وتتغير عليه الأيام؛ فجاء التوجيه ليبقي باب العودة مفتوحًا.

اقرأ ثم ارجع، وراجع ما حفظت، وافتح السورة التي طال عنها عهدك.

الصحبة لا تُبنى من مجلس مثالي واحد. هي أقرب إلى أبواب ترجع إليها حتى تصير معروفة للنفس: مصحف له موضع، وسورة تعود إليها في ضيقك، وآيات تحفظها لأنك تكررها في صلاتك، وصفحات يمر عليها زمن ثم تشتاق أن تستأنفها. هذه الأشياء البسيطة لا تبدو دائمًا كبيرة، لكنها تصنع مع الأيام ألفة من النوع الذي يعين على القرب إذا بقي معها التعظيم.

وإذا انقطع شيء من ذلك، فلا تقف طويلًا عند قصة الانقطاع. لا تتوقف عودتك على تهيؤ كبير، أحيانًا يكفي أن تفتح اليوم صفحة واحدة. فالشيطان والنفس قد يحولان الندم على الفتور إلى سبب لفتور أطول، بينما التوجيه النبوي أبسط: تعاهدوا. عد إلى ما يفلت، واربط ما انحل، ثم امض.

والصحبة لا تسكن مجلس التلاوة وحده، تدخل مفاصل اليوم. بات ابن عباس رضي الله عنهما عند ميمونة رضي الله عنها، فلما استيقظ رسول الله ﷺ من الليل جلس يمسح النوم عن وجهه بيده، ثم قرأ العشر الآيات الخواتم من سورة آل عمران، ثم قام إلى وضوئه وصلاته (البخاري 183، ومسلم 763).

وللقرآن صحبة مع المؤمنين بعضهم مع بعض. قال رسول الله ﷺ: «وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفَّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده» (مسلم 2699).

وللتعلم والتعليم في هذه الصحبة منزلة ظاهرة. قال رسول الله ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» (البخاري 5027). فما تتلقاه من كتاب الله لا يلزم أن يقف نفعه عندك؛ قد تُعلّم غيرك آية أحسنتها، أو تعينه على قراءة سورة، فيمتد الخير من قلب إلى قلب.

بهذا تتسع الصحبة: خلوة يقرأ فيها العبد كلام ربه، وإنصات في الصلاة، وآيات تستقبل بها اليقظة، ومجلس يتدارس فيه المؤمنون كتاب الله. ومع الأيام يصير للقرآن في الحياة مواضع ثابتة يعود إليها القلب؛ فلا تبقى الصلة زيارةً عابرة، بل معايشةً تدخل الليل والنهار، والخلوة والجماعة، والعبادة والعلم.

وهنا يضع القرآن التلاوة داخل حياة كاملة من العبودية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: 29].

وكان مطرف بن عبد الله إذا مر بهذه الآية يقول: «هذه آية القراء» (الطبري 463/20): تلاوة، وصلاة، وإنفاق، ورجاء.

التلاوة هنا ليست شيئًا صغيرًا ذاب في بقية الأعمال؛ إنها عبادة جليلة تسكن داخل عبودية أوسع، وتحتفظ بفضلها الخاص إلى جوار الصلاة والإنفاق والرجاء.

وأجمل ما في آخر الآية أن القارئ لا يُترك مع عدّ ما صنع، بل ينتقل إلى رجاء ما عند الله: ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾.

كم من وقت أنفقه الناس ثم لم يبق منه شيء.

أما الوقت الذي مضى في كتاب الله، فالقلب المؤمن يرجو به تجارة وصفها الله بأنها لن تبور.

وكم يحتاج الإنسان إلى هذا المعنى في زمن يقيس فيه أيامه بما أنجزه منها للناس والدنيا. ساعة مضت مع القرآن قد لا تترك في يدك شيئًا يراه غيرك؛ لكن الله علّمك أن تنظر إلى نوع آخر من الربح: تلاوة وصلاة وإنفاق ورجاء في تجارة لن تبور.

فلا تحتقر مجلسًا لأن أثره الدنيوي غير ظاهر. أنت لا تعرف أي آية ستبقى معك، ولا أي حرف يكون لك عند الله، ولا أي عودة صادقة بعد فتور تكون بداية صحبة طويلة. ومع ذلك لا تتحول هذه المعاني إلى حساب بارد للأجور؛ إنها توسع قلبك للرجاء، وتجعلك تدخل على القرآن وأنت تعلم أن الوقت معه ليس وقتًا مفقودًا.

حين تنفتح القراءة

ومع كل هذا الفضل، لا يغلق القرآن باب التلاوة على حركة اللسان؛ بل يفتح منها طريقًا إلى وجهة الكتاب.

> ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾
>
> [الكهف: 27].

ويقول الطبري في آخر الآية: «فتتبعه وتأتمّ به» (651/17). فالتلاوة هنا متصلة بوجهة الكتاب.

وفي موضع آخر قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البقرة: 121]. ورجح الطبري أن الآية في مؤمني أهل الكتاب، وأن الكتاب فيها التوراة؛ وإنما الشاهد هنا

تفسيره ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: 121] بأنهم «يتبعونه حق اتباعه» (565/2، 569/2). فتصل دلالة «حق التلاوة» التلاوةَ بالاتباع، من غير أن تكون الآية نازلة في تلاوة القرآن.

فبعد أن عرفت أن الحرف عبادة، وأن المشقة تزيد الأجر، وأن للقراءة مكثًا وسماعًا وتعاهدًا وصحبة، يبقى السؤال: ما الذي أنزل الله هذا الكتاب ليصنعه حين أقرأه؟ ويأتي الجواب من القرآن نفسه: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: 29].

لا تنقص منزلة القراءة حين تفتح باب التدبر، بل يظهر تمام اللقاء.

الحروف التي نتعبد بتلاوتها تحمل آيات يريد الله أن نُتدبر، ومواعظ يريد أن نُتذكر، وحقائق يريد أن تبلغ القلب.

لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ

باب المعنى

تنتهي من آية وأنت تعرف معنى كلماتها، ثم لا يبقى منها شيء بعد أن تنتقل إلى ما بعدها. والتدبر يبدأ حين يُعطى كلام الله زمنًا يتجاوز فهم الجملة إلى تلقيها: ماذا يقول ربي هنا؟ ما الذي يريد أن يوقظه في قلبي، أو يصححه في نظري، أو يدعوني إليه؟

والقرآن نفسه يبين أن من مقاصد إنزاله أن يقع هذا المكوث مع المعنى. قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: 29].

في آية واحدة يجتمع أصل الطريق: كتاب أنزله الله مباركًا، ثم ذكر من غايات إنزاله أن نُتدبر آياته وأن يتذكر أولو الألباب. فالبركة ليست معنى خارج القراءة؛ من بركة هذا الكلام أن يفتح للعبد بابًا يرى به ما لم يكن يراه، ويتذكر به ما غفل عنه، ثم يحمل من الآية ما يصحبه بعد أن يغلق المصحف.

وقال الطبري في قوله ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾: يتدبرون حجج الله وما شرع في كتابه «فيتعظوا ويعملوا به» (190/21). فالتدبر لا يقف عند فهم العبارة، ولا يبدأ من خاطر نصنعه من عند أنفسنا؛ يبدأ من معنى الآية كما جاءت، ثم يمكث القلب معه حتى يأخذ نصيبه من الاتعاظ والعمل.

التدبر في صلاة النبي ﷺ

ثم ترينا السنة هذا التلقي حيًا في صلاة النبي ﷺ. صلى حذيفة رضي الله عنه معه ليلة، فقرأ النبي ﷺ البقرة، ثم النساء، ثم آل عمران، ووصف قراءته بقوله: «يقرأ مترسلًا، إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ». (مسلم 772).

الآية التي فيها تسبيح توقظ تسبيحًا، والتي فيها سؤال تفتح سؤالًا، والتي فيها تعوذ تستدعي استعاذة. المعنى لم يبق خبرًا في الخارج؛ دخل العبادة، وحرك اللسان والقلب في اللحظة نفسها.

وفي قوله: «يقرأ مترسلًا» يظهر أثر الترتيل والمكث: الترسل يفسح للمعنى مكانًا قبل الانتقال إلى ما بعده.

الفهم هنا يوقظ عبادة: تقرأ عن ربك فتسبحه، وتقرأ وعده فتسأله، وتقرأ ما يُخاف فتستعيذ به. القرآن يقود اللقاء، والقلب يجيبه.

القصة التي تصير عِبرة

تقرأ قصة يوسف عليه السلام، وقد تعرف أحداثها قبل أن تبدأ: الجب، والبيع، والفتنة، والسجن، ثم التمكين واجتماع الشمل. ومع ذلك يختم الله السورة بقوله:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: 111].

قال الطبري: فيها «عبرة لأهل الحجا والعقول يعتبرون بها، وموعظة يتعظون بها» (312/16). وفي الآيتين يُسمَّى أولو الألباب أهلَ التذكر والعبرة؛ فالتذكر والعبرة عمل عقل حاضر، لا مرور عين على خبر. ومعرفة ما وقع ليوسف وإخوته هي بداية التلقي، والعبرة أن ترى من خلال ما وقع حقيقة تهدي نظرك: كيف يجري تدبير الله في طريق لا يكشف أوله آخره، وكيف تبقى عنايته نافذة حين تضيق الصورة على صاحبها.

في قاع الجب لم يكن التمكين ظاهرًا، وفي السجن لم تكن خزائن الأرض قريبة في الحس، وبين أول القصة وآخرها مسافات لو قرأ الإنسان مقطعًا واحدًا منها منفصلًا ربما ظن أن المشهد قد أُغلق. ثم تجمع السورة الطريق كله، فيرى القارئ ما لم يكن يراه أصحاب اللحظة وهم داخلها.

وهذا المعنى لا يحتاج أن تخرجه من السورة في صورة قاعدة ترددها كلما نزل بك أمر. يكفي أحيانًا أن تبقى القصة في ذاكرتك كما حكاها القرآن: جبّ لا يظهر بعده قصر، وسجن لا تظهر في جداره خزائن الأرض، وفقد طويل لا يرى صاحبه ساعة الجمع. حين تبقى الصور نفسها حية، فإنها تعمل في القلب وقت الحاجة من غير تكلف.

وقد تمر بك مرحلة لا ترى منها إلا مقطعًا واحدًا. سورة يوسف لا تعدك بالنهاية التي تختارها أنت، لكنها ترد قلبك إلى حقيقة أوسع: ما لا ترى آخره لا يخرج عن علم الله وتدبيره.

حين يعيد الله المعنى إلى القلب

ويعيد القرآن الحقيقة إلى القلب من طريق الصورة والمثل، ثم يسمّي الغاية التي يريدها من هذا التذكير. قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: 27].

المثل لا يُعطى للقلب ليعجب بصورته ثم يمضي؛ ختمه الله هنا بقوله: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، وختم مثل الجبل بقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: 21]. صورة يفتح بها القرآن باب النظر، ثم يردك منها إلى حقيقة تحتاج أن تبقى معك.

ويعيد المعنى نفسه من وجه آخر؛ لأن القلب لا يكون في كل مرة على حال واحدة، ولأن التذكير قد يفتح اليوم بابًا لم يفتحه بالأمس. قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: 113].

قال الطبري: « خوّفناهم فيه بضروب من الوعيد... أو يحدث لهم هذا القرآن تذكرة» (381/18). فعودة المعنى ليست دورانًا باردًا؛ يعود ليصنع في القلب ما سمته الآية: تقوى أو ذكرًا.

وقد تعرف الآية منذ سنين، ثم تأتيك في يوم آخر كأنها وصلت الآن إلى موضع لم تبلغه من قبل. لم يتغير كلام الله؛ الذي تغيّر هو حالك أنت: ضعف عرفته، أو نعمة ذقتها، أو خوف طرق قلبك. فتعود إلى الآية القديمة، ويحدث لك بها ذكر جديد.

فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ؟

وفي سورة القمر يتكرر بعد مشاهد المكذبين نداء قصير، لكنه يضع القارئ نفسه داخل المشهد:

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: 17].

بدأت الآية بخبر من الله: ﴿يَسَّرْنَا﴾. قال الطبري: «ولقد سهَّلنا القرآن، بيَّناه وفصَّلناه للذكر، لمن أراد أن يتذكر ويعتبر ويتعظ، وهوَّناه» (584/22). فالتيسير يفتح باب الذكر لمن يقصده: بيان وفصل وتهوين يعين على التذكر والاعتبار والاتعاظ.

ثم ينتهي الخبر بسؤال يتجه إلى الإنسان: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾. وعن قتادة: «فهل من طالب خير يُعان عليه» (584/22). فتدخل إلى القرآن طالب خير، فتُعان عليه.

وهذا يخفف عن التدبر عبئًا صنعه الناس أحيانًا: ليس عليك أن تخرج في كل مجلس بخاطرة جديدة. قد يكون التدبر أن تعرف المعنى على وجهه، ثم يقوى به رجاؤك، أو يردك وعيد عن ذنب، أو تبقى صورة من المثل حاضرة حتى تأتي ساعة تحتاجها.

فهمٌ أمين يفتح للقلب باب العبودية

والقرآن نفسه جمع في طريق الفهم بين بيان الرسول ﷺ وتفكر الناس. قال الله تعالى:

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 44].

في الآية ترتيب يضبط هذا الباب من غير أن يبرده: ذكرٌ منزّل، ورسول يبين، وناس يتفكرون. فالتدبر ليس أن نفرض على الآية خاطرًا أحببناه، بل أن نعرف ما قال الله، ثم نفتح القلب لما قاله فعلًا.

ولهذا يكون التفسير طريقًا إلى التدبر لا حاجزًا عنه. فإذا ثبت المعنى لم يبق غرض القارئ أن يجمع شرحًا آخر، بل أن يدع الحق الذي فهمه يعظه ويرجّيه ويحذره ويطلب منه موقفًا.

آية تبقى بعد التلاوة

تنتهي من مجلسك ولا تحمل قائمة طويلة. لكن آية واحدة تبقى. تتذكرها بعد ساعات في موقف لم تكن تفكر فيه بها، أو تعود إلى ذهنك عند اختيار، أو تسمعها في صلاة فتجد أن بينك وبين معناها عهدًا.

وهذا من أجمل ما يفعله التدبر في بداية الطريق: يعيد للقرآن حقه في أن يبقى بعد التلاوة. الحروف انتهت على اللسان، لكن التذكر لم ينته. والقصة مضت، لكن العبرة بقيت. والمثل انقضى لفظه، لكن الصورة ما زالت تكشف الحقيقة. والوعيد مر، لكن القلب صار أقدر على أن يتقي.

ولهذا جمع الله بين الأمرين: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: 29].

التدبر يفتح المعنى، والتذكر يمنعه أن يكون زائرًا عابرًا. وما بينهما يبدأ القرآن يأخذ مكانه في داخل الإنسان، لا بوصفه صفحات قرئت وانتهت، بل كلامًا يبقى معناه حاضرًا في التذكر والعبرة والتقوى.

وحين يدخل العبد إلى القرآن هكذا، يتغير السؤال: إذا استقبل القلب معنى الوحي على هذا الوجه، فماذا يصنع القرآن به؟

نور وشفاء وهدى

من ربكم إلى ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ [يونس: 58]

بعد أن يتعلم القارئ أن يمكث مع المعنى، يبقى سؤال أشد قربًا من حاجته: ماذا يصنع كلام الله في القلب حين يُستقبل على هذا الوجه؟ تجيب آيتان من يونس بحركة كاملة تبدأ من الرب الذي أرسل الموعظة، وتنتهي بقلب أُمر أن يفرح بما جاءه.

ولهذا وصف الله القرآن بأوصاف تتجاوز مقدار ما يُحفظ في الذهن إلى ما يقع في القلب والطريق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس: 57-58].

المقطع يرسم حركة كاملة: موعظة تأتي من الرب، وشفاء يبلغ الصدر، وهدى يكشف الطريق، ورحمة تصحب المؤمن، ثم ينتهي المشهد إلى فرح يعيد ترتيب ما يستحق أن يفرح به الإنسان.

ابدأ من أول الوصف: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾. ليست الموعظة فكرة وجدها الإنسان ثم نسب إليها الحكمة؛ جاءت من ربك، من الذي خلقك ويعلم ما يصلحك وما يفسدك، ويعلم من قلبك ما لا تعلمه أنت.

قال الطبري في الموعظة: «ذكرى تذكركم عقابَ الله وتخوّفكم وعيده» (104/15)، وبيّن أن قوله ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ يثبت مصدرها؛ فهي مما جاء من عند الله، لا مما اختلقه محمد ﷺ أو افتعله أحد (105/15).

تعرف أن العمر يمضي، لكن الموعظة تجعل هذه المعرفة واقفة أمامك وأنت تختار. وتعرف أن الذنب ذنب، ثم يبرد إحساسك به لكثرة الألفة؛ فتأتي الآية فترد إليه اسمه ووزنه. وتعرف أن العقوبة حق، ثم يهون الخطر في عينك إذا طال بين الذنب وأثره؛ فترد الموعظة الوعيد إلى موضعه.

والموعظة من ربك ليست صوتًا يوبخك من بعيد. الذي خلقك ويعلم ضعفك هو الذي يذكرك بما ينفعك ويحذرك مما يهلكك. لذلك قد تكون الآية التي أقلقت راحتك رحمةً سبقت شعورك بها: أيقظتك قبل أن تستقر الغفلة، وكشفت لك موضع الداء قبل أن يطول مقامه.

ثم تمضي الآية من النداء إلى داخل الإنسان نفسه: ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس: 57].

فسر الطبري ذلك بقوله: «ودواءٌ لما في الصدور من الجهل» (105/15). فالشفاء يبدأ حين يصحح كلام الله ما فسد في الرؤية: تعرف ربك على وجه أصدق، وتعرف نفسك على وجه أعدل، وترى الدنيا بقدرها، وتعرف ما ينفعك وما يضرك في ضوء الوحي.

وحين يصح النظر في القلب لا تبقى المعرفة ساكنة؛ يتغير معها شيء من الخوف والرجاء والاختيار. كم من تعب في الصدر أصله أن يطلب القلب من الدنيا ما لا تملكه، أو أن يخاف من الخلق ما لا يملكون، أو أن يزن خسارته وربحه بميزان ضيق. فإذا ردّه الوحي إلى الحقيقة بدأ الشفاء من موضع الجهل نفسه.

ثم لا يترك الله القلب بعد أن أبصر موضعه، تأتي الكلمة التالية: ﴿وَهُدًى﴾ [يونس: 57]. وفسرها الطبري بأنها بيان للحلال والحرام ودليل على طاعة الله ومعصيته (105/15). فالشفاء ليس سكونًا بلا طريق؛ القرآن يريك ثم يقودك.

ويجمع القرآن هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9].

قال الطبري: «يرشد ويسدد من اهتدى به للسبيل التي هي أقوم من غيرها من السبل» (392/17-393). الهداية هنا تسديد إلى الطريق الأقوم حين تتعدد السبل ويقوى على القلب ضغط المألوف والهوى والبيئة.

ويفتح القرآن لهذا الهدى اسمًا آخر حين يقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: 52].

ووصف الطبري هذا القرآن بأنه «ضياء للناس» يستضيئون بما بيّن الله فيه من الرشاد والنجاة (559/21-560)، وقال النبي ﷺ في كتاب الله: «فيه الهدى والنور» (مسلم 2408). فالهداية ليست فكرة صحيحة فحسب؛ هي نور تحتاجه حين تختلط الطرق ويشبه بعضها بعضًا.

النور يكشف للمسافر أين يضع قدمه. ومن هنا تكون هداية القرآن حية في القرار: يفرق بين طريقين تشابهت أسماؤهما، ويكشف انحرافًا لبس ثوب المصلحة، ويرد القلب إلى الصراط حين تكاثرت عليه الجهات.

ولهذا تكون الهداية حية حين تصحب القرار قبل أن يتم. لا بعد أن تختار ثم تبحث عن آية تطمئنك، بل حين تسمح لكلام الله أن يضيء السؤال من أوله: ما الذي يرضيه؟ ما العاقبة التي ينبغي أن أحسبها؟ أي الخسارتين خسارة حقيقية؟ وحين يحدث هذا، لا تتغير المعلومات وحدها، يتغير ترتيب الأشياء في العين.

ثم تضم الآية ما سبق كله في كلمة تردّ القلب إلى المُنعِم: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 57].

قال الطبري: «يرحم الله بالقرآن من شاء من خلقه فينقذه به من الضلالة إلى الهدى، وينجيه به من الهلاك والردى» (105/15).

عندها تتغير نظرتك إلى ما سبق: الموعظة التي أوقفتك رحمة، والآية التي كشفت جهلًا فيك رحمة، والحكم الذي خالف هواك ثم دلّك على الرشد رحمة، والنور الذي أبان لك أن الطريق المحبوب عند النفس ليس هو الطريق الأقوم رحمة.

الله لم يترك عبده للتيه، ولم يتركه لظنه بنفسه ولا لضغط ما حوله؛ أنزل له من كلامه ما يوقظه ويشفيه ويهديه. ومن هنا لا تكون الصلة بالقرآن مجرد تكليف جديد يضاف إلى أعباء الحياة، بل من أعظم ما يعين العبد على أن يرى حياته كما ينبغي.

بدأ المقطع بنداء عام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ [يونس: 57]، ثم قال عند الرحمة: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 57]. وقال الطبري: «وجعله تبارك وتعالى رحمةً للمؤمنين به دون الكافرين به» (105/15). فالقرآن جاء إلى الناس، وهذه الرحمة للمؤمنين به.

ثم تبلغ آيتا يونس ختامهما: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: 58].

فسر الطبري فضل الله بالإسلام، ورحمته بالقرآن الذي أنزله إلى عباده فعلّمهم به ما لم يكونوا يعلمون، ثم قرر أن الإسلام والقرآن «خيرٌ مما يجمعون من حطام الدنيا وأموالها وكنوزها» (105/15).

هنا يعاد وزن الفرح نفسه. فالإنسان يعرف جيدًا كيف يفرح بما دخل يده: مال زاد، ونجاح تحقق، وباب من الدنيا فُتح. أما أن يكون عنده كتاب ربه؛ يعظه إذا غفل، ويشفي من الجهل، ويبصره بالحق، ويدله على الأقوم، وينير له الطريق، ويرحمه بأن ينقذه من الضلالة، فهذه نعمة قد يكثر قربها حتى يضعف شعوره بقدرها.

والآية تعيدها إلى موضعها: ﴿هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾. تبقى نعم الدنيا نعمًا تُشكر، لكن الآية تضع فوق ما يُجمع نعمة تعيد وزن ما يُجمع كله. ما في اليد قد يصلح جانبًا من الحياة؛ أما الوحي فيعلّم القلب كيف يزن الحياة نفسها، وأين يضع خوفه ورجاءه وفرحه وطريقه.

ويحجب دوام النعمة أحيانًا مقدارها: يفرح القلب بخبر جديد من الدنيا، بينما يبقى المصحف في مكانه حتى ينسى أن وجود كلام الله بين يديه عطية لا تقاس بما يجمع. لا يطلب منك القرآن فرحًا مصنوعًا؛ يكفي أن ترى ما كان يكون حالك لو تُركت لهواك وظنون البشر، ثم تنظر إلى كلام يعظك ويشفيك ويهديك ويرحمك.

وروى الطبري في الآية أيضًا عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «بفضل الله القرآن، وبرحمته أن جعلكم من أهله» (106/15). وفي قوله «أن جعلكم من أهله» يجيء الفرح في صورة أخص: أن لا يكون القرآن حاضرًا بين يديك فحسب، بل أن يجعلك الله من أهله المنتفعين به.

وقال الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾ [الإسراء: 82]. وقال الطبري في تفسيرها بما يوافق ما سبق في آية يونس، وختم في زيادة الظالمين بقوله: «ورجسًا إلى رجسهم» (538/17–539). ففي الآية نفسها شفاء ورحمة، ثم مقابلة بالزيادة؛ القرآن واحد، لكن أثر اللقاء لا يقع في القلوب على السواء.

فماذا زادك لقاء القرآن؟

ما الذي زادك؟

ميزان اللقاء بالوحي

سؤال هذه الصفحات: ماذا زادك لقاء الوحي؟ له أصله في هذا المقطع القرآني، وإن لم يرد بهذه الصيغة:

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: 124-125].

خرج السؤال على ألسنة المنافقين، ثم جاء جواب المقطع بكفتين. في قوم: ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾. وفي قوم آخرين: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾. السورة واحدة، والذي نزل واحد، لكن أثر اللقاء لم يكن واحدًا.

ومن هنا يتغير السؤال. لا يكفي أن تقول: قرأت، أو سمعت، أو فهمت. وراء ذلك أثر يسأل عنه المقطع بلفظ الزيادة، ومن هنا يأتي سؤال الكتاب:

ماذا زاد؟

زيادة يفرح بها المؤمن

قال الطبري في قوله تعالى ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾: إن السورة حين نزلت صار على المؤمنين أن يقروا بأنها بعينها من عند الله، وأن يؤمنوا بما جاء فيها، فكان ذلك زيادة في التصديق والإقرار. وفسر استبشارهم بأنهم «يفرحون بما أعطاهم الله من الإيمان واليقين» (14/577-578).

فالزيادة هنا محددة المعنى: زيادة تصديق بما نزل من عند الله، والسورة التي جاءت بأمر أو خبر أو حد من حدود الله صارت بعد نزولها شيئًا جديدًا يصدق به المؤمن ويقر به. ثم قرن الله هذه الزيادة بالاستبشار. القلب المؤمن يتلقى من ربه مزيدًا من الوحي، فيزداد به إيمانًا، ويجد في هذه الزيادة موضع فرح.

والتلاوة نفسها موضع زيادة

كان ذلك في سورة تُنزّل. وفي آية الأنفال صارت التلاوة نفسها موضعًا للزيادة:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: 2].

قال الطبري: «وإذا قرئت عليه آيات كتابه صدّق بها، وأيقن أنها من عند الله، فازداد بتصديقه بذلك، إلى تصديقه بما كان قد بلغه منه قبل ذلك، تصديقًا» (385/13). وروى عن الربيع في قوله ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ أنه قال: «خشية» (387/13).

انتهى زمن التنزيل، وبقيت آيات الله تُتلى. والآية نفسها تجعل التلاوة لقاءً يمكن أن يقع فيه ازدياد: تصديق يتصل بتصديق، ويقين بأن هذا الكلام من عند الله، وخشية تنشأ في القلب وهو يسمع آيات ربه. ولهذا وضعت الآية الزيادة بين عبادتين قلبيتين: يبدأ المشهد بوجل القلب عند ذكر الله، وينتهي بالتوكل عليه. الذي يتلقى الآيات هنا لا يخرج منها بمعلومة منفصلة عن عبوديته؛ يصدق، ويوقن، ويخشى، ثم يستند إلى ربه.

﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: 109]

ويعرض القرآن صورة أخرى للزيادة في قوم أوتوا العلم من قبل نزوله:

﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: 107-109].

فسر الطبري هؤلاء بأنهم من مؤمني أهل الكتابين قبل نزول الفرقان، وقال في قوله ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾: «يزيدهم ما في القرآن من المواعظ والعبر خضوعًا لأمر الله وطاعته، واستكانة له» (579/17).

التلاوة هنا أخرجت سجودًا وتسبيحًا وبكاءً، ثم ختم المقطع بتعيين ما ازداد في الداخل: خشوعًا. الدمع ظاهر المشهد، والخشوع هو المعنى الذي أبقاه القرآن في آخره: خضوع لأمر الله، وطاعة، واستكانة له. وهكذا لا يصبح التأثر غاية قائمة بنفسها؛ يأخذ الوحي القلب من التأثر به إلى عبودية أعمق لله.

وقد لا ترى في نفسك كل هذه الصور كلما قرأت، فلا تجعل المشهد ميزانًا تعذب به قلبك. القرآن نفسه سمى ما وراء الصورة: خشوعًا، وتصديقًا، وهداية. وقد تكون زيادتك أهدأ: خبر كنت تعرفه عن الله صار أثبت، أو أمر كنت تتردد أمامه صار أيسر قبولًا، أو وعد كنت تقرؤه صار أقرب إلى رجائك.

وقد تمر بالإنسان لحظة يبكي فيها ثم تمضي، لكن القرآن يعلّمه أن ينظر إلى ما استقر وراء اللحظة: هل صار أمر الله أعظم؟ هل صار القلب أسرع استكانة له؟ هل صار العبد أصدق خضوعًا حين يخالف الوحي ما يريد؟ وهذه هي الجهة التي ختمت بها الآية: ﴿خُشُوعًا﴾.

وفي السجود يتحول أثر التلاوة إلى عبودية بالبدن في اللحظة نفسها. قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد، اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا ويله، أُمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأُمرت بالسجود فأبيت فلي النار» (مسلم 81).

أُمر فسجد. هكذا تنقل آية تُتلى العبد من السماع إلى الأرض بين يدي ربه. لا يبقى الخشوع معنى في القلب وحده؛ تستجيب له الجوارح، ويصير القرآن قائدًا لفعل حاضر: سمع أمر الله، فخرَّ له ساجدًا.

من الاقشعرار إلى اللين

وفي سورة الزمر لا يأتي لفظ الزيادة، لكن القرآن يريك التغير وهو يقع تحت السماع: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [الزمر: 23].

قال الطبري: «تقشعر جلود الذين يخشون ربهم من سماع القرآن إذا تُلي عليهم، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى العمل بما في كتاب الله، والتصديق به» (21/280-281).

تبدأ الآية برهبة تظهر حتى على الجلد، ثم لا تترك صاحبها عند الرهبة؛ تمضي به إلى لين القلب لذكر الله، وإلى العمل بما في كتابه والتصديق به. ثم يأتي الحكم على هذا الذي جرى كله: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

«وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي»

وجاء جبير بن مطعم رضي الله عنه إلى المدينة في شأن أسارى بدر، وكان ذلك قبل إسلامه، فسمع النبي ﷺ يقرأ في المغرب بسورة الطور (البخاري 3050). ولما بلغ رسول الله ﷺ:

﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ۝ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ﴾ [الطور: 35-37]

قال جبير: «كاد قلبي أن يطير» (البخاري 4854). وفي رواية أخرى قال عن سماعه سورة الطور: «وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي» (البخاري 4023).

العبارة الأولى تصف وقع اللحظة: قلب يكاد يطير. والثانية تكشف ما بقي منها: بدأ الإيمان يقر في الداخل. أسئلة القرآن لم تكتف بأن تثير الدهشة؛ حاصرت الوهم حتى وقف القلب أمام الحقيقة: أَخُلق الإنسان من غير خالق؟ أم خلق نفسه؟ أم خلق السماوات والأرض؟ ومع كل سؤال يضيق طريق الهرب، حتى لا يبقى أمام القلب إلا أن يواجه أصل وجوده وربه.

ثم انظر إلى بساطة الطريق الذي دخل منه الأثر: رجل يسمع في صلاة المغرب. لم يكن داخل مجلس أعد له ليغير حياته، ولم يكن يومئذ قد دخل في الإسلام. مرّ القرآن إلى سمعه في لحظة من يوم عادي، لكن الأسئلة وجدت في القلب موضعًا، وبقي منها ما عبّر عنه بعد ذلك بقوله: «أول ما وقر الإيمان في قلبي».

وهذا يفتح رجاءً واسعًا لمن يقرأ على نفسه أو على من يحب. لست أنت الذي تملك فتح القلوب، ولا تعرف أي آية ستكون بابًا، إنما تبلغ كلام الله بصدق وتدع له سلطانه.

ما الذي بقي فيك؟

ليس أثر القرآن صورة واحدة: قد يظهر في سجدة أو دمعة، وقد يكون أهدأ، تصديقًا أثبت، وخشوعًا أصدق، وقلبًا ألين لذكر الله. المهم ليس شكل اللحظة، بل ما أبقته في العبد بعد أن مضت.

فلا تفتعل انفعالًا لتطمئن إلى صلتك بالقرآن. اسأل سؤالًا أصدق: هل خرجت من كلام ربي كما دخلت؟ هل صار ما أخبرني الله به أثبت في قلبي، أو صار أمره أعظم عندي، أو صار رجوعي إليه أسرع؟ هنا يتحول قياس الأثر من مراقبة الشعور إلى عبودية.

ماذا زادك؟

الكفة الأخرى

ثم تأتي الكفة الثانية من المقطع نفسه: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ [التوبة: 125].

هؤلاء هم المنافقون الذين وصفهم الله بمرض القلب. قال الطبري: «المرض هنا نفاق وشك في دين الله، فإن السورة زادتهم رجسًا لأنهم شكوا في أنها من عند الله، فلم يؤمنوا بها ولم يصدقوا، فكان ذلك زيادة شكٍّ حادثةٍ في تنزيل الله، لزمهم الإيمان به عليهم، بل ارتابوا بذلك، فكان ذلك زيادة نَتْنٍ من أفعالهم، إلى ما سلف منهم نظيره من النتن والنفاق » (578/14).

لا يُحمل وصف هؤلاء على المؤمن الذي فتر يومًا أو قصر؛ فالآية تتحدث عن قوم ماتوا وهم كافرون. لكن المقابلة تبقى كما وضعها القرآن: السورة التي زادت المؤمنين إيمانًا زادت أولئك رجسًا إلى رجسهم. الوحي لم يتغير؛ الذي انكشف هو حال القلب الذي تلقاه.

فالقرآن حاضر في اليد واللسان والعقل، والآيات تُتلى؛ فأين يبدأ الخلل حين يبقى النص حاضرًا، ولا يبقى القلب على حال الانتفاع به؟

إذا طال الأمد

والقرآن ما يزال حاضرًا

قد يبقى القرآن حاضرًا في يومك كله: تقرأه، وتحفظ منه، وتعرف مواضع آياته، وتزداد مع الأعوام علمًا بمعانيه. ومع ذلك يبقى سؤال لا تجيب عنه كثرة الصحبة وحدها: ماذا صنع طولها بالقلب؟

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: 16].

قال الطبري في قوله ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾: «ألم يحن للذين صدقوا الله ورسوله أن تلين قلوبهم لذكر الله»، وفسر ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ بأنه «هذا القرآن الذي نزله على رسوله ﷺ» (187/23).

ألم يحن.

الكلمة إيقاظ لمن آمن ووصل إليه القرآن وعرفه. فالحق حاضر، ثم يبقى للقلب موعد يتجدد فيه الخشوع. وما مضى من أعوام الصحبة لا يجيب وحده عن حال القلب اليوم.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ إلا أربع سنين» (مسلم 3027). فقد جاء هذا العتاب للمؤمنين الأوائل بعد سنوات قليلة من إسلامهم، ليبقى خشوع القلب مطلبًا يتجدد.

وفي النداء نفسه رحمة لا ينبغي أن تضيع تحت الخوف. لو كان الباب قد أغلق لما جاء السؤال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ [الحديد: 16]. ما زال ثمة وقت لأن يلين القلب، وما زال القرآن يبلغ القلوب ويوقظها. الآية لا تقول للمؤمن :انتهيت، تقول له :آن.

وقد يحتاج القارئ أن يسمعها بهذه البساطة بعيدًا عن كل المقارنات: ألم يحن أن تعود للآية التي كنت تمر بها؟ أن تترك عادة عرفت حكمها؟ أن يصير العلم الذي جمعته باب خضوع لا مجرد قدرة على الشرح؟ لا تبحث أولًا عمن تنطبق عليه الآية من الناس. دع السؤال يصل إليك أنت في القدر الذي يليق بالمؤمن الذي يريد قلبًا أخشع.

وطول الصحبة نعمة عظيمة، لكن الاعتياد قد يتسلل إلى أخص مواضعها. تعرف تفسير الآية، وتشرح معناها لغيرك، وتستحضر موقعها من السورة وما قيل فيها، ثم تمر بك في موضع تتمسك فيه بعادة أو رأي أو شهوة، فتضعف قدرتها على إيقافك عما ألفت. صارت المعلومة أوسع، وبقي القلب محتاجًا إلى أن يتلقى من جديد.

ثم تنتقل الآية من طلب الخشوع إلى باب الاعتبار: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: 16]. فتضع أمام المؤمن ما جرى لمن أوتي الكتاب قبله، ليخشى على قلبه الطريق الذي بدأ بطول الأمد وانتهى إلى القسوة، مع بقاء أحكام أولئك لهم.

وفسر الطبري القسوة بأنها «قسوة عن الخيرات، واشتدت على السكون إلى معاصي الله» (189/23). وساق عن ابن مسعود رضي الله عنه: «إن بني إسرائيل لما طال عليهم الأمد، وقست قلوبهم اخترعوا كتابًا من بين أيديهم وأرجلهم، استهوته قلوبهم، واستحلته ألسنتهم» (188/23).

في هذا الأثر بلغت القسوة أن طلب القلب كتابًا تستحليه نفسه. وقد يقع الخلل قبل هذا الحد: يبقى كتاب الله هو المقروء، ثم يدخل الهوى من جهة القراءة نفسها؛ فيطلب القلب من الآيات ما يوافق ما سبق أن أحبه. وهذا هو الباب الذي تكشفه آل عمران.

إذا سبق الميل الدليل

قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: 7].

الآية في أهل الزيغ، والخطأ في الفهم أوسع من هذا الباب. والذي تكشفه هنا ترتيب ينبغي أن يخشاه طالب الهدى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾، ثم ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾، ثم تظهر الغاية: ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾. بدأ الميل في القلب، ثم تحركت العين داخل الكتاب على وفقه.

وساق الطبري عن محمد بن جعفر بن الزبير أنهم «يتبعون المتشابه ليصدقوا به ما ابتدعوا وأحدثوا، ليكون لهم حجة على ما قالوا وشبهة» (185/6).

وقد يكون من أصدق آثار القرآن فيك أن يسقط استدلال أحببته؛ لأنك رجعت إلى الآية وسياقها فلم تجدها تقول ما كنت تنسبه إليها. الرجوع هنا مكسب: تركت كلام الله يقودك، ولم تجعل مهارتك في الاستدلال طريقًا إلى إبقاء رأيك كما هو.

وهذا النوع من الرجوع قد لا يراه أحد، وقد يكون شاقًا على النفس أكثر من ترك عمل ظاهر. أن تكون قد دافعت عن قول، أو بنيت عليه صورة من نفسك، ثم يتبين لك أن النص لا يسنده كما ظننت، عندها يكون الانتصار الحقيقي أن تخسر حجتك وتربح انقيادك.

ويبقى الحارس البسيط: كلام الله أحب إلي من أن يوافقني. فإذا ظهر الحق، كان الرجوع إليه زيادةً في الصلة بالقرآن لا هزيمة.

ولا يترك السياق القلب مع هذا التحذير وحده، يجيء بعده مباشرة دعاء يرد العبد إلى ربه: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: 8].

الهداية نفسها نعمة تحتاج إلى تثبيت، والقلب لا يستغني بعد العلم عن رحمة الله. ومن تمام الصلة بالقرآن أن لا يثق العبد بمهارته في الفهم وحدها، بل يسأل منزل الكتاب أن يحفظ قلبه من الزيغ، وأن يهب له من لدنه رحمةً وهو يقرأ ويتدبر ويرجع إلى الحق.

﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ﴾ [الأعراف: 169]

قال الله تعالى فيمن ورثوا الكتاب من بني إسرائيل: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾ [الأعراف: 169-170].

قبل ﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ﴾ يصف القرآن قومًا يأخذون عرض الدنيا ثم يتمنون المغفرة وهم يعودون إلى ما فعلوا. قال الطبري: «كانوا يقولون إن الله سيغفر لهم تمنيًا على الله الأباطيل» (211/13). والكتاب عندهم، وقد درسوه.

ثم يقول القرآن: ﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ﴾. يقول الطبري: «ورثوا الكتاب فعلموا ما فيه ودرسوه، فضيعوه وتركوا العمل به» (215/13).

علموا ودرسوا، ثم بقي بين العلم وما يقتضيه فراغ. ويقابل القرآن ذلك مباشرة بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ﴾. فالمعرفة التي تبني الصلة ليست أن تعرف موضع الآية فقط، بل أن يبقى للآية موضع تمسك فيه صاحبها، فترده إذا مال، وتحمله على ما علم.

أن يبقى القرآن قادرًا عليك

ولهذا تعود كلمة البداية: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ﴾ [الحديد: 16]. ليست كلمة إغلاق، بل نداء إيقاظ: ما دام القلب يسمع، فقد آن له أن يلين من جديد.

تكون قد قرأت السورة عشرات المرات، ثم يفتح الله لك منها اليوم باب توبة أو خضوع لم يفتح بالأمس. هذه ليست إدانةً لطول الصحبة؛ بل من أجمل ثمارها أن يبقى كلام ربك حيًّا قادرًا أن يفاجئ غفلتك ويعيدك إليه.

طول الصحبة يزداد جمالًا حين يبقى القلب قابلًا لأن يُوقَف ويُرد ويُصحح. تعرف الآية منذ سنين، ثم تقرؤها كأن لها حقًا جديدًا فيك. تجد حجتك أضعف مما ظننت فتتركها، أو يظهر لك من العلم ما يطلب قرارًا أو كفًا أو توبة، فيعبر من الذهن إلى الحياة.

هذه صحبة يزداد بها القلب حياة مع الزمن: كلما ازددت بالقرآن علمًا، ازددت قدرة على الخضوع له. وكلما عرفت مواضع الآيات، بقيت مستعدًا لأن تأتي آية واحدة فتغير موضعًا فيك. ويظل كلام ربك أحب إليك من سلامة رأيك، وأثقل في ميزانك من المنفعة التي تميل إليها.

عندها يعود طول الأمد زيادة حياة، لا زيادة ألفة وحدها.

ويبقى امتحان آخر أشد: قد تفهم مراد الوحي على وجهه، وتدع هواك في الاستدلال، وتعرف أن ما علمته يطلب منك عملًا؛ ثم يأتي الحكم على رغبة تحبها أو مصلحة تريدها. هنا ينتقل السؤال من فهم ما قال الله إلى موقف القلب بعد أن فهمه:

ماذا تفعل حين يكون الحكم عليك؟

سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا

حين يكون الحكم عليك

قد يفهم العبد مراد الوحي على وجهه، ويدع هواه في الاستدلال، ثم يأتيه الامتحان من موضع آخر: يعرف الحكم، لكنه يقع على شيء يحبه، أو عادة استقرت، أو مصلحة يريدها، أو طريق ألفه زمنًا. هنا يظهر سؤال أشد من سؤال الفهم: ما منزلة حكم الله في قلبه حين لا يكون الحكم له، بل عليه؟

هنا تنكشف معاني كثيرة لا تظهر حين يكون الحكم موافقًا لما نريد. من السهل أن تحب عدل الشريعة في موضع يعيد لك حقًا، وأن تفرح بالنص حين يؤيد ما كنت تراه. لكن العبودية لها موضع آخر: حين يطلب منك الحق أن تتنازل، أو تكف، أو تعترف، أو تصبر، أو تدع شيئًا تحبه.

ولا يعني هذا أن النفس لا تتألم. قد تتألم، وقد تحتاج إلى مجاهدة طويلة. إنما السؤال أعمق من الشعور الأول: هل يبقى في القلب أصل يقول إن حكم ربي حق، وإن حاجتي إلى رحمته وعونه لا تبيح لي أن أجعل هواي حاكمًا عليه؟ من هنا يفترق ثقل التكليف عن رفضه، وتظهر مساحة العبودية التي ستكشفها النصوص الآتية.

وقد يظهر هذا الامتحان في أمر قريب: حقٍّ لغيرك تؤخر أداءه وأنت قادر، أو مجلسٍ اعتدت فيه غيبة الناس، أو مصلحةٍ تحبها ولا تبلغها إلا بمخالفة ما علمت من حكم الله. هنا يظهر صدق التسليم: هل يتقدم حكم الله على ما تريد النفس؟

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ۝ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ۝ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝ إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [النور: 48-51].

يسمي الطبري هؤلاء في تفسير الآية الأولى: «المنافقون»، ويبين أنهم «أعرضوا عن قبول الحق، والرضا بحكم رسول الله ﷺ» (204/19). ثم يظهر تبدل الموقف بتبدل موقع الحق: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾. قال الطبري: «مذعنين منقادين لحكمه، مقرين به طائعين غير مكرهين» (205/19). جاء الانقياد حين جاء الحكم بما يريدون، فانكشف الخلل حين صار الحق عليهم.

ثم يدخل القرآن إلى باطن الموقف: ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾، ثم يقطع الأعذار: ﴿بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾. وبيّن الطبري أن الخلل كان في الإعراض عن حكم الله ورسوله وعدم الرضا به فيما أحبوا وكرهوا (205/19). فالعبودية تظهر حين يبقى حكم الله حقًا عند العبد في المحبوب والمكروه.

وعند قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال الطبري: «سمعنا ما قيل لنا، وأطعنا من دعانا إلى ذلك»، ثم قال في معنى ﴿كَانَ﴾ [النور: 51]: «ولكنه تأنيبٌ من الله الذي أنزلت هذه الآية بسببهم، وتأديبٌ منه آخرين غيرهم» (206/19). فالتأديب باقٍ لكل من يأتي بعدهم: يسمع حكم الله ورسوله، ثم يجعل موضعه الأول الطاعة. وفسر ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: 51] بأنهم «المنجحون المدركون طلباتهم» (206/19). وهنا يدخل حكم الله موضع الطاعة قبل أن يسأل العبد أين وقع من رغبته، فالفلاح لم يُعلَّق على أن يأتي الحكم بما يحب، وإنما على صدق السمع والطاعة.

حتى يسلّم القلب

قال الله تعالى مخاطبًا المؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: 59].

في لحظة النزاع يرد القرآن المؤمن إلى الله والرسول، ثم يقرر له قبل أن تنكشف العاقبة: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾. قد تضيق الرؤية الآنية عن إدراك الخير، ويبقى حكم الله صادرًا عن علم أحاط بما لم يحط به العبد، وحكمة ترى المآل الذي لم يره بعد.

ثم يعرض السياق قومًا زعموا الإيمان بما أنزل، وأرادوا التحاكم إلى الطاغوت، وصدوا حين دعوا إلى الرسول ﷺ، حتى يبلغ قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء: 65].

فالآية تنقل الطاعة إلى باطن القلب: تحكيم، ثم انتفاء الحرج من أصل الحكم، ثم ﴿وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾. وقال الطبري في معنى الحرج: «ضيقًا مما قضيت»، وروى عن مجاهد: «شكًّا» (518/8). فالمقصود انتفاء منازعة الحكم والشك فيه، لا انتفاء كل مشقة طبع أو مجاهدة نفس.

تحت الثقل

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: 284] اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فأتوه ثم بركوا على الركب، وقالوا: «أي رسول الله، كُلِّفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أُنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها». فقال رسول الله ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير». قالوا: «سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير»، فلما اقترأها القوم ذلّت بها ألسنتهم (مسلم 125).

جاءوا إلى رسول الله ﷺ، ثم بركوا على الركب. لم يخفوا أن الأمر اشتد عليهم، ولم يمثلوا قوة لا يجدونها؛ قالوا ما وجدوه: «ولا نطيقها». هذا الصدق لم يخرجهم من العبودية. الذي صححه لهم النبي ﷺ هو الكلمة التي يقفون بها أمام ربهم وهم مثقلون.

ولهذا تحمل «سمعنا وأطعنا» في هذا الموضع معنى أدفأ من مجرد الانضباط. بعدها مباشرة: «غفرانك ربنا». كأن القلب يقول: يا رب، حقك أن أسمع وأطيع، وأنا مع ذلك ضعيف محتاج إلى مغفرتك. فلا غرور في الطاعة، ولا اعتراض في الضعف. ثم يأتي «وإليك المصير» فيرد الطريق كله إلى نهايته عند الله.

وفي الحديث بعد قولهم: «سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير»: فأنزل الله في إثرها: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: 285]. ثم قال: «فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى، فأنزل الله عز وجل»: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 286]. وجاء بعدها الدعاء والجواب: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: 286]، قال: «نعم»؛ ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة: 286]، قال: «نعم»؛ ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البقرة: 286]، قال: «نعم»؛ ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: 286]، قال: «نعم» (مسلم 125).

غُفْرَانَكَ رَبَّنَا

ثم لم يتركهم الله مع كلمة الطاعة وحدها، فتح لهم بعدها باب الافتقار كله: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ [البقرة: 285]، ثم الدعاء بالعفو والمغفرة والرحمة، وجاء الجواب: «نعم». فيجتمع في المشهد حق الرب وضعف العبد: يسمع ويطيع لأنه عبد، ويسأل ويستعين لأنه عبد. وإذا ثقل عليه الطريق لم ينازع ربه حق الحكم، بل لجأ إليه يطلب العون والرحمة.

وهذه الصورة تصلح أن تصحبك كلما ثقل عليك باب من أبواب الطاعة. لا تجعل أول همك أن تختفي المشقة حتى تطيع؛ قد تطيع وهي موجودة. ولا تجعل الطاعة اعتمادًا على قوة نفسك؛ قد تقول سمعنا وأطعنا ثم يكون أكثر ما على لسانك: غفرانك ربنا. العبودية ليست قلبًا لا يضعف، بل قلبًا يعرف إلى من يذهب بضعفه.

ومع استقرار هذه الهيئة يبقى أمامه مقام أوسع: كيف تكون صحبة القرآن حين يصير الكتاب له إمامًا؟

فَاتَّبِعُوهُ

أن يتقدم الكتاب

يقول العبد عند الحكم: سمعنا وأطعنا، ثم يبقى بعد ذلك سؤال أسبق من الحكم نفسه: من الذي علّم قلبك ما يستحق أن تطلبه، وما الذي يستحق أن تخشاه، وما الذي تسميه ربحًا أو خسارة، وما الذي تقدمه إذا تزاحمت الأشياء؟

قال الله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: 155].

هذا كتاب أنزله الله مباركًا، ثم لم يقل لك: انظر إليه من بعيد، بل قال: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾. وقال الطبري: «فاجعلوه إمامًا تتبعونه وتعملون بما فيه» (238/12).

الإمام يتقدم، ومن يأتم به يجعل خطوه وراءه. وربك لم ينزل إليك كتابه ليأتي متأخرًا يبارك اختيارات اكتملت دونه، أنزله ليعلمك من الأصل ماذا تحب، وماذا تخاف، وما الذي تسعى له، وما الذي ترضى أن يفوتك.

وفي السنة يُرى كيف يعيد هذا الكتاب وزن الناس أنفسهم. سأل عمر رضي الله عنه نافع بن عبد الحارث عمّن استخلف على أهل الوادي، فقال: ابن أبزى. قال عمر: ومن ابن أبزى؟ قال: «مولى من موالينا». قال: «فاستخلفت عليهم مولى؟». قال: «إنه قارئ لكتاب الله عز وجل، وإنه عالم بالفرائض». فقال عمر: أما إن نبيكم ﷺ قد قال: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا، ويضع به آخرين» (مسلم 817).

كان وصف «مولى» حاضرًا في السؤال بما ألفه الناس من مراتبهم، ثم دخل كتاب الله فرفع ميزانًا آخر: قارئ لكتاب الله، عالم بالفرائض. لم تعد المنزلة موزونة بما ألفه الناس وحده، بل بما يرفعه الله بكتابه.

سؤال عمر بدأ من ميزان مألوف في الناس: من هذا الذي استخلفته؟ «مولى من موالينا». ثم جاءت جملة قصيرة: «إنه قارئ لكتاب الله... عالم بالفرائض». لم تتغير أصول الرجل في لحظة، لكن دخل إلى الميزان شيء أعلى منها، وصار له أثر في منزلته وأهليته.

فإذا سبق الكتاب إلى العين التي ترى، صار الرجوع إليه عند الحكم ثمرةً طبيعية لميزان عاش معه صاحبه قبل أن تقع الخصومة.

وهذا لا يقع عادة في قرار واحد كبير. يتكون الميزان من عشرات اللقاءات الصغيرة مع الوحي: آية تعيد تعريف الغنى، وأخرى تعيد تعريف الخسارة، وثالثة تريك قدر الدنيا، ورابعة تكشف لك معنى الكرامة، ثم تتراكم هذه الموازين حتى تجد أنك صرت ترى الشيء نفسه بطريقة أخرى.

وحينئذ يكون القرآن قد سبق إلى القرار قبل وقوعه. فإذا جاء المال أو المدح أو الخوف أو المنافسة، لم تبدأ من صفحة بيضاء تكتب عليها البيئة ما تشاء؛ في قلبك كلام سابق من ربك. قد تجاهد لتتبعه، وقد تضعف، لكن معيارك نفسه لم يعد ملكًا كاملًا لما حولك.

كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا

في سياق جدال المشركين قال الله لنبيه ﷺ: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: 114-115].

قال الطبري في قوله ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾: «فليس لي أن أتعدى حكمه وأتجاوزه، لأنه لا حَكَم أعدل منه، ولا قائل أصدق منه»، وفسر ﴿ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا﴾ بأنه القرآن «مبينًا فيه الحكم فيما تختصمون فيه من أمري وأمركم» (60/12). ثم بيّن في الآية التالية أن ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ تعني القرآن، وأنها «كملت كلمة ربك من الصدق والعدل» (62/12).

يجتمع هنا ما يحتاجه الميزان: كلمة ربك صدق في الخبر وعدل في الحكم. فالعبد لا يرد رؤيته إلى كتاب مجهول المصدر، بل إلى كلام رب يعلم ما لا يعلم، ويرى من العواقب ما لا يرى.

ويضع القرآن هذا الميزان أمام القلب في تعريفه للفوز: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: 185].

قال الطبري في ﴿فَقَدْ فَازَ﴾: «فقد نجا وظفر بحاجته»، ثم قال في تمام المعنى: «فقد نجا وظفر بعظيم الكرامة» (452/7). فالفوز هنا أن تُزحزح عن النار وتدخل الجنة. وفي الجملة نفسها أعاد القرآن وزن الدنيا كلها: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾. قد يربح الإنسان مالًا أو موقعًا أو قبولًا، ثم يبقى السؤال الذي وضعه القرآن أسبق: أين يقع هذا من الفوز الذي عرّفه الله؟

وتبقى نعم الدنيا نعمًا تُشكر: المال نعمة، والمنصب قد يكون باب خير، والقبول من الناس رزقًا. لكن الآية لا تسلّم كلمة «الفوز» للعاجل وحده. تضع نهاية الطريق أمام القلب ثم تقول: من زُحزح عن النار وأُدخل الجنة فقد فاز. عندها يبقى لكل نجاح دنيوي قدره، ولا يأخذ قدر الآخرة.

وحين يبقى هذا التعريف حيًا، تهدأ أشياء كانت تكاد تكسر القلب. خسارة عاجلة لا تصبح عدمًا، وربح عاجل لا يصبح نجاة. تتسع الرؤية لأن العمر نفسه صار جزءًا من طريق ينتهي إلى لقاء الله. وهذا أحد أعظم ما يفعله القرآن بالموازين: لا ينزعك من الدنيا، بل يضع الدنيا في حجمها داخل الطريق الأطول.

ما أُنزل إليكم من ربكم

قال الله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 3].

قال الطبري: «اتبعوا، أيها الناس، ما جاءكم من عند ربكم بالبينات والهدى، واعملوا بما أمركم به ربكم»، ثم قال في ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾: «ولا تتبعوا شيئًا من دونه، يعني: شيئًا غير ما أنزل إليكم ربكم» (298-297/12).

وقد يكون ما يزاحم الوحي أهدأ من دعوة صريحة إلى تركه: مسلّمة عاشت في النفس حتى صارت تبدو بديهية؛ أن قيمة الإنسان فيما يملك، أو أن النجاح فيما يراه الناس، أو أن الخسارة هي كل ما فات عاجلًا. فإذا لم يدخل القرآن إلى هذه المقدمات، بقي القارئ يسأله عن تفاصيل طريق رسمت الدنيا اتجاهه من قبل. الاتباع الأعمق أن تسمح لكلام الله أن يعيد تعريف النجاح والكرامة والخسارة نفسها.

وتأتي السنة فتجعل الاتباع أخذًا واستمساكًا. ففي حديث زيد بن أرقم قال النبي ﷺ في كتاب الله: «فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به»، ثم حث على كتاب الله ورغب فيه (مسلم 2408).

هاتان الكلمتان تنقلان الصلة من مجرد معرفة أن الكتاب حق إلى الأخذ به والثبات عليه؛ أن يبقى في اليد والقلب ما تمسك به الطريق. وفي خطبة عرفة قال النبي ﷺ: «وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله» (مسلم 1218). فالاستمساك والاعتصام كلاهما يضعان الكتاب في صلب السير، قبل أن تتوزع بالإنسان الأصوات والموازين.

وهذا الأخذ بالقرآن لا يفصل عن اتباع الرسول ﷺ، فقد جمعهما القرآن في صورة واحدة: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 157].

قال الطبري في ﴿ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾: «يعني القرآن والإسلام» (169/13). فالآية تجمع الإيمان بالرسول وتعزيره ونصره مع اتباع النور المنزل؛ ومن صدق أخذه بالكتاب قاده الكتاب نفسه إلى الرسول ﷺ وبيانه وهديه.

وهذا يعيدنا إلى الآية التي بدأت منها هذه المعاني: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: 155].

قال الطبري في ﴿وَٱتَّقُواْ﴾: «واحذروا الله في أنفسكم، أن تضيعوا العمل بما فيه، وتتعدوا حدوده، وتستحلوا محارمه»، ثم قال في ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾: «لترحموا، فتنجوا من عذاب الله، وأليم عقابه» (239/12).

فالكتاب الذي يُجعل إمامًا له أثر يطلبه منك: عمل لا يُضيَّع، وحدود لا تُتجاوز، ومحارم لا تُستحل. لكن انظر إلى خاتمة الأمر: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾. من رحمة الله أنه لم يتركك لموازينك المتقلبة؛ أنزل لك كتابًا صادقًا عادلًا، يهديك قبل أن تختار، ويصحح ميزانك قبل أن تحاسب على اختياراتك، ثم دعاك أن تمشي وراءه.

وحين يستقر هذا في القلب، لا يبقى القرآن كتابًا ترجع إليه في آخر الطريق، بل يصبح الكتاب الذي تعلّمت منه أين الطريق أصلًا.

ويبقى بعد ذلك سؤال لا تجيب عنه الموازين وحدها: كيف يبدو إنسان عاش فعلًا خلف هذا الإمام؟ كيف تتحول الآية من ميزان في القلب إلى قرار وخلق وبذل وكف؟

هناك تظهر الإمامة على هيئة حياة.

كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ

حين يصير القرآن فيك

قد يحب العبد القرآن، ويريد أن يعمل به، ويعقد في نفسه نية صادقة أن يتغير به، ثم تبقى الاستجابة مؤجلة: حين يهدأ، أو تتيسر الظروف، أو تصبح النفس ألين. والنية الصالحة خير، وليس كل تكليف مطلوبًا في اللحظة نفسها؛ لكن الخطر أن يصير التأجيل هو الصورة الدائمة للعلاقة، فيبقى القرآن محبوبًا في القلب، مؤجلًا في الحياة.

قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4].

قال الطبري: «وذلك أدب القرآن الذي أدبه الله به، وهو الإسلام وشرائعه» (528/23).

وحين سُئلت عائشة رضي الله عنها عن خُلُق رسول الله ﷺ قالت للسائل: «ألست تقرأ القرآن؟» قال: بلى. قالت: «فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن». قال السائل: «فهممت أن أقوم، ولا أسأل أحدًا عن شيء حتى أموت» (مسلم 746).

كفاه الجواب حتى همّ أن يقوم. ردّته عائشة إلى القرآن؛ لأن الكتاب عند رسول الله ﷺ لم يكن معنى يعرفه ثم تبقى الحياة خارجه، بل أدبًا وعبادةً وشريعةً تعاش.

وفي هذه الكلمة سعة. السائل أراد أن يعرف خُلُق رسول الله ﷺ، فلم تُعطه عائشة رضي الله عنها قائمة خصال تحفظ، بل ردته إلى الكتاب الذي كان يربّي ذلك الخلق. كأن حياته ﷺ لا تُفهم من موقف منفصل عن الوحي الذي تلقاه: ما أمر به امتثله، وما نهى عنه انتهى، وما أثنى عليه تحلّى به.

وهذا يغيّر سؤال القارئ عن «تطبيق القرآن». التطبيق ليس مشروعًا خارجيًا تضع له قائمة ثم تضع علامة أمام كل بند؛ هو أن تسمح للكتاب أن يدخل معك إلى المواطن المتكررة التي تصنع شخصيتك: كيف تغضب، وكيف تعفو، وكيف تنفق، وكيف تتكلم، وكيف تصلي، وكيف تختار حين لا يراك أحد. من تكرار هذه الاستجابات يتكون فيك شيء من أثر القرآن.

وكان هذا ظاهراً في فعله نفسه. قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي»، يتأول القرآن (البخاري 4968، ومسلم 484).

قال الله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ [النصر: 3]. فجاء الأمر في الوحي، ثم ظهر في ركوعه وسجوده. وقد يُطلب تأويل القرآن ليُتَّبع الهوى، وقد يتأول المؤمن القرآن بأن يتبع هو ما أمر الله؛ وهنا كان تأويل النبي ﷺ طاعةً ظهرت في ركوعه وسجوده.

وهنا يبلغ التعلّق بالقرآن منزلة أعمق من كثرة حضوره في اللسان: أن تحبه حتى ترضى أن يربيك؛ يقيم منك ما اعوج، ويكف منك ما لا يرضي الله، ويقودك إلى ما يحبه.

آية توقفك

قد تظهر صلة القرآن بالعبد في لحظة لا تحتمل تأجيلًا طويلًا: غضب ارتفع، وكلمة كادت تخرج، ثم جاءت آية فوقفت بين النفس وما تريد.

وكان الحر بن قيس من النفر الذين يدنيهم عمر رضي الله عنه، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولًا كانوا أو شبانًا. فلما دخل عيينة بن حصن على عمر قال له: «هي يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل». فغضب عمر حتى همّ به. فقال له الحر: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: 199].

ثم قال: «وإن هذا من الجاهلين». قال ابن عباس رضي الله عنهما: «فوالله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافًا عند كتاب الله» (البخاري 4642).

بين الغضب وبين الفعل كانت هناك لحظة واحدة كافية لأن يدخل فيها كلام الله. لم يحتج عمر رضي الله عنه إلى مجلس طويل حتى يهدأ، ولم يقل إن الآية يعرفها من قبل فلا جديد فيها. ذُكّر بها في الموضع الذي احتاجها، فوقف. وهذه القدرة على الوقوف من أعظم ثمار الصحبة: أن تكون الآية حاضرة حين تكون النفس في حركة، لا بعد أن ينتهي الموقف وتبرد الشهوة.

وربما لا يكون وقوفك في مشهد يراه الناس. قد يكون رسالة كتبتها ثم لم ترسلها، أو كلمة ابتلعتها، أو ردًا أخّرته حتى يسكن غضبك، أو حقًا قدرت على أخذه لنفسك ثم عفوت. لا يعرف أحد أن آية مرت في داخلك وأوقفتك، لكن الله يعلم. هنا يصير القرآن حياة لا معلومة.

آية تبلغ أحب ما عندك

وفي موضع آخر لا تأتي الآية لتكف يدًا، بل لتفتحها.

قال الله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ﴾ [آل عمران: 92].

كان أبو طلحة رضي الله عنه أكثر الأنصار بالمدينة مالًا من نخل، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء. فلما نزلت الآية قام إلى النبي ﷺ فقال: «يا رسول الله، إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: 92]، وإن أحب أموالي إلي بيرحاء، وإنها صدقة لله، أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله». فقال النبي ﷺ: «بخ، ذلك مال رابح»، وأرشده أن يجعلها في الأقربين (البخاري 1461).

تلا أبو طلحة الآية أولًا، ثم سمّى أحب ماله، ثم قال: «صدقة لله»، ورفع بصر القلب إلى ما عند الله: «أرجو برها وذخرها عند الله». لم تكن الآية تعليقًا على قرار اتخذه من قبل؛ هي التي بلغت موضع الحب فصار منها القرار. ولم يختف الحب، لكن الآية بلغت موضعه، فصار المحبوب نفسه بابًا إلى الله. وخرج المال من يده، وسماه النبي ﷺ «مالًا رابحًا»؛ فالقرآن الذي يعيد تعريف الربح في القلب ظهر هنا في مال يخرج من الملك، ثم يكون هو الرابح.

المحبة في المشهد لم تُنكر. لم يقل أبو طلحة إن بيرحاء لا تعني له شيئًا؛ بل بدأ من الحقيقة: «أحب أموالي إلي». ومن هذه الكلمة تعرف مقدار ما صنعته الآية. لو كان المال هينًا عليه لما كشف بذله عن شيء كبير. القرآن لم يطفئ المحبة، بل نقلها إلى موضع أعلى: أحب هذا المال، وأحب أن أبلغ البر الذي دلني الله عليه.

فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا

ثم يعرض القرآن صورة أخرى لأثره فيمن تلقاه: يدخل من السمع، ثم يخرج من صاحبه بلاغًا وهدايةً لغيره.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: 29-32].

بدأ المشهد بـ ﴿قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟﴾، وانتهى بـ ﴿وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾. وقال الطبري: «انصرفوا منذرين عذاب الله على الكفر به» (140/22). بين الإنصات والإنذار عرفوا الكتاب، ووصفوه بأنه ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، ثم رجعوا إلى قومهم يقولون: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾.

وبين الكلمتين زمن ينبغي ألا تتجاوزه سريعًا: حضروا، فأنصتوا. قبل أن يصيروا منذرين كانوا مستمعين. وقبل أن يحملوا إلى قومهم كلامًا، حمل الكلام إليهم هداية. هذه البداية تحفظ للدعوة معناها؛ لا يحمل القرآن إلى الناس من لم يسمح له أولًا أن يخاطبه هو.

وقد يغريك حرصك على نفع غيرك أن تقرأ دائمًا بعين من يبحث عما سيرسله أو يعلمه. وهذا خير في موضعه، لكن لك أنت نصيبًا قبل ذلك. أنصت. دع الآية تصل إلى خوفك ورجائك وحالك أنت. فإذا هدت قلبك خرجت إلى غيرك من موضع أعرف بطعم الهداية وأرحم بمن تدعوه إليها.

وقد جاء هذا الأصل في خطاب النبي ﷺ نفسه: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: 19].

وكان مجاهد يقول: «حيثما يأتي القرآن فهو داع، وهو نذير» (الطبري، 291/11). فالقرآن لا يصل إلى موضع ثم يبقى ساكنًا فيه، حيث يصل يحمل دعوةً وإنذارًا. وقال الله لنبيه ﷺ: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: 45].

ومن آثار هداية القرآن لك أن تحمله إلى غيرك. وقد يكون أعظم ما تقدمه لإنسان أن توصله إلى كلام ربه بصدق وفهم وقلب يرجو له الهداية.

كان خُلُقُه القرآن

تعود كلمة عائشة في آخر الطريق وقد رأيت شيئًا من معناها: «فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن».

أن يظهر أثر ما قرأت في سلوكك: عفوًا لأنك وقفت عند ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ [الأعراف: 199]، وبذلًا لأنك سمعت ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: 92]، وحرصًا على هداية الناس؛ لأن القرآن الذي هداك علّمك أن تقول: ﴿يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: 31]. وتصبح صحبة القرآن مما يراه الله في قراراتك وأعمالك، لا مما يعرفه الناس من مقدار قراءتك فقط.

فالآية التي صارت قرارًا في الدنيا لا ينتهي شأنها بانتهاء القرار، والكلمة التي كففت نفسك عندها، والمال الذي بذلته حين سمعت، والنور الذي حملته إلى غيرك، كل ذلك يمضي معك.

ومن هنا يصبح السؤال عن المآل طبيعيًا لا انتقالًا مفاجئًا. فالقرآن الذي دخل قراراتك في الدنيا لا ينتهي شأنه بانتهائها، سيأتي يوم تكون الدنيا نفسها قد انتهت. عندها لا يعود السؤال: ماذا كان رأيك في الكتاب؟ بل ماذا صار منه في حياتك، وماذا تحمل معك إلى لقاء الله؟

ثم يأتي يوم يصير فيه السؤال أثقل:

هل يكون القرآن حجة لك أم عليك؟

وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ

الاستمساك قبل السؤال

قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: 43-44].

قال الطبري في ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾: «وسوف يسألك ربك وإياهم عما عملتم فيه، وهل عملتم بما أمركم ربكم فيه، وانتهيتم عما نهاكم عنه فيه؟» (610/21). وفسر ﴿لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ بأنه شرف للنبي ﷺ ولقومه من قريش.

فالآية في خطاب النبي ﷺ وقريش: استمساك بالوحي، وشرف به، ثم سؤال عما عُمل فيه. ومع خصوص هذا الخطاب، جاء الميزان النبوي عامًا في صلة العبد بالقرآن. قال رسول الله ﷺ: «والقرآن حجة لك أو عليك» (مسلم 223).

أن يبلغك كلام الله نعمة، وأن يُفتح لك باب تلاوته وفهمه والعمل به فضل؛ ثم يمضي بك العمر وأنت تعرف أن هذا الكلام يمكن أن يكون في صفك أو عليك. من هنا يصير السؤال أخطر من مقدار ما قرأت: أين بلغ منك ما قرأت؟

فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: قال لي النبي ﷺ: «اقرأ علي». قلت: يا رسول الله، أقرأ عليك وعليك أُنزل؟ قال: «نعم». فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: 41].

قال ﷺ: «حسبك الآن». قال ابن مسعود: فالتفتُّ إليه فإذا عيناه تذرفان (البخاري 5050).

لم يزد المشهد على القرآن نفسه: قال ﷺ «حسبك الآن»، ثم التفت ابن مسعود فإذا عيناه تذرفان. بقيت الآية تعمل في القلب من غير خطبة بعدها ولا شرح طويل.

ومع طول الصحبة بالقرآن لا تُستنفد قدرة الآية على أن تبلغ القلب. رسول الله ﷺ الذي نزل عليه القرآن وبلغه للناس سمع مشهد الشهادة فذرفت عيناه؛ فالمعرفة لا تحول كلام الله إلى خبر بارد إذا بقي القلب حيًّا.

القرآن الذي تسمعه اليوم يحدثك عن ذلك اليوم قبل أن يأتي. وهذه من رحمته بك: أن يريك المآل وأنت ما تزال في دار العمل، وأن يمر خبر الآخرة على قلبك قبل أن تصير الآخرة مشاهدة لا رجوع بعدها.

حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ۝ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: 27-30].

في النساء يُجاء بالرسول ﷺ شهيدًا، وهنا يتكلم الرسول في مشهد المآل. قال الطبري: «وقال الرسول يوم يعضّ الظالم على يديه: يا ربّ إن قومي الذين بعثتني إليهم لأدعوهم إلى توحيدك اتخذوا هذا القرآن مهجورًا» (264/19). ورجح في معنى الهجر أنهم «هجروا القرآن وأعرضوا عنه ولم يسمعوا له» (264/19-265).

وقال سبحانه في خطاب أهل النار: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [المؤمنون: 105].

الأول في قوم أعرضوا عن الرسول والقرآن، والثاني في أهل النار المكذبين؛ ووجه العبرة للمؤمن ظاهر من غير أن تُنقل إليه أوصافهم: القرآن الذي جاء في الدنيا، والآيات التي كانت تُتلى، تعود في مشهد الشهادة والحساب. فما تسمعه من كلام الله ليس لحظة تمضي ثم تصير كأن لم تكن.

ولهذا يبقى سؤال الصحبة أوسع من أن يُختصر في مصحف تحمله أو ختمات تعدّها، مع عظيم فضل التلاوة: ماذا صنعت هذه الصحبة بك، وماذا صنعت أنت بما علمت؟

تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ

غير أن القرآن لا يترك القلب تحت ثقل السؤال وحده. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ۝ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ۝ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ۝ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ۝ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۝ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: 29-35].

بدأ السياق بالتلاوة، ثم وسّعها إلى الصلاة والإنفاق والرجاء، ثم وفاء الأجر وزيادة الفضل، ثم انتهى بأهل دار المقامة يحمدون الله أن أذهب عنهم الحزن. طريق يبدأ بكتاب الله في الدنيا، ويبلغ فضل الله في الآخرة.

وعند ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ﴾ اختار الطبري أن المصطفين مؤمنو أمة محمد ﷺ، وأن الظالم لنفسه منهم صاحب الذنب دون الشرك والنفاق، وأن الأصناف الثلاثة يدخلون الجنة في المآل، وإن سبق لبعضهم عقاب (20/469-470).

فالآيات لا تسوي بين ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات، لكنها تفتح للمقصر بابًا لا يملكه اليأس أن يغلقه: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾، ثم في آخر الطريق: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾، و﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾. تفاوت في العمل، وفضل من الله لا يستغني عنه أحد.

قف عند الاسمين في هذا الموضع من الخاتمة: غفور، شكور. القارئ الذي مر قبل صفحات بالخوف من القسوة والهوى والتقصير لا يُترك الآن مع سجله وحده. ربه يغفر، ويشكر لعبده عمله. هذا لا يسوي بين السابق والمقتصد والظالم لنفسه، ولا يجعل العمل سواء، لكنه يفتح الرجاء في رب واسع المغفرة والفضل.

وقد تكون أحوج ما تكون إلى هذا حين تنظر إلى سنوات ضاعت أو ورد انقطع أو علم لم تعمل بكل ما فيه. الندم الصادق لا يطلب منك أن تيأس من الطريق، بل أن تعود إلى رب وصف نفسه هنا بالغفور الشكور، وأن تجعل ما بقي من العمر أصدق صحبة مما مضى.

وفي السنة يقترب الرجاء أكثر. قال النبي ﷺ: «اقرؤوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه» (مسلم 804). وقال ﷺ: «يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به» (مسلم 805).

أصحاب يشفع لهم القرآن، وأهل وصفهم النبي ﷺ بأنهم كانوا يعملون به. التلاوة عبادة لا يُزهد فيها، والعمل لا يُفصل عن الصحبة. وما أعظم أن يكون الكتاب الذي صحبته في الدنيا حاضرًا في ذلك اليوم شفيعًا لك.

اقْرَأْ وَارْتَقِ

قال رسول الله ﷺ: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلك عند آخر آية تقرؤها» (أبو داود 1464، والترمذي 2914 بنحوه، وقال: «حديث حسن صحيح»).

«كما كنت ترتل في الدنيا». في الدنيا جاء الأمر: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: 4]، وهنا يعود الترتيل نفسه في مشهد الارتقاء. ما كان عبادة في ليل الدنيا لا يضيع أثره، واللسان الذي عاش مع الآيات يسمع يومًا: «اقرأ وارتق».

وهذا يردّ النظر إلى معنى الصحبة والملازمة التي يبنيها العمر مع القرآن. وهذه التفاصيل الهادئة ليست وحدها كل معنى «صاحب القرآن»، لكنها من مادته: صفحة قرأتها وأنت متعب، وسورة راجعتها بعد أن تفلتت، وورد استأنفته بعد انقطاع، وآية كررتها حتى استقام لسانك بها. ومع التلاوة، والحفظ بحسب ما يفتح الله، والعمل، والعودة التي لا تنقطع، تكون صحبة لا تقف عند لحظة القراءة.

وإذا أغلقت هذا الكتاب، فعد إلى القرآن نفسه. افتحه غدًا أو الليلة، واقرأ وأنت تستحضر شيئًا واحدًا من الطريق كله: هذا كلام ربي. ويمكنك أن تستأنف وردًا انقطع، أو تعود إلى آية عرفت معناها ولم تدخل حياتك بعد، أو تسلّم لحكم ثقل على النفس. ثم دع الصحبة تنمو على مهل: إنصات، وتدبر، وزيادة، وتسليم، واتباع، وعمل.

قرأته لأنه كلام ربك. سمعته حتى رق قلبك. تدبرته حتى فتح لك المعنى. استمسكت به حين اضطربت الجهات. قلت: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة: 285] حين خالف هواك. جعلته أمامك حين أردت أن تزن الأشياء. ووقفت عنده حين أرادت نفسك أن تتجاوزه. ثم تركته يدخل خُلُقك وقرارك حتى ظهر شيء منه فيك.

وبعد ذلك كله، لا يكون آخر ما بينك وبينه صفحة أغلقتها في الدنيا.

اقرأ وارتق.

وما دام القرآن بين يديك الآن، فأنت في زمن الاستمساك قبل زمن السؤال. الباب لم يغلق.

﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: 43].

سلاسل مركز الدراسات والبحوث

السلاسل التي ينتجها المركز

- سلسلة العلوم التطبيقية

سلسلة موازين القرآن — السلسلة الحالية

- سلسلة مفاهيم الفكر المعاصر
- سلسلة حقوق وفضائل
- سلسلة طبائع النفس